كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد بالحق فأرداهم في الحافرة، فنقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرّغ في التراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل، فانظر هل وجدوا من الموت حصنًا وعزًّا، واتخذوا من دونه حجابًا وحرزًا، وانظر: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨] فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء، واستأثر باستحقاق البقاء، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصًا للأتقياء وموعدًا في حقهم للقاء، وجعل القبر سجنًا للأشقياء وحبسًا ضيقًا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة، وله الانتقام بالنقم القاهرة، وله الشكر في السموات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة، والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فجدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقرّه وبطن الأرض مستقرّه والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا حول إلا حوله، ولا انتظار وتربص إلا له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى ويراها في أصحاب القبور، فإن كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت، وقد قال رسول الله ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ»[(١)]، ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدّد ذكره على القلب، ولا يتجدّد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له والنظر في المنبهات عليه. ونحن نذكر من أمر الموت ومقدّماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بدّ للعبد من تذكاره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار، ليكون ذلك مستحثًّا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فما بقي من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾

---

(١) حديث «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت». تقدم غير مرة.

[الأنبياء:١] ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين:

الشطر الأول في مقدماته وتوابعه الى نفخة الصور، وفيه ثمانية أبواب

الباب الأول: في فضل ذكر الموت والترغيب فيه.

الباب الثاني: في ذكر طول الأمل وقصره.

الباب الثالث: في سكرات الموت وشدّته وما يستحب من الأحوال عند الموت.

الباب الرابع: في وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده.

الباب الخامس: في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين.

الباب السادس: في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور.

الباب السابع: في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور.

الباب الثامن: فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام.

الباب الأول

في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره. وإذا ذكر به كرهه ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة:٨] ثم الناس: إما منهمك، وإما تائب مبتدئ، أو عارف منته. أما المنهمك: فلا يذكر الموت، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدًا. وأما التائب: فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ: «مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» [(١)]، فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء قصوره وتقصيره، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلًا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارهًا للقائه وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا، وأما العارف: فإنه يذكر الموت دائمًا لأنه موعد لقائه لحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وهذا في غالب الأمر يستبطىء مجيء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار

(١) **صحيح**: حديث «من كره لقاء الله كره الله لقاءه». متفق عليه من حديث أبي هريرة، [البخاري: ٦٥٠٨، مسلم: ٢٦٨٤].

العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين. كما روي عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم؛ اللهم إن كنت تعلم أنّ الفقر أحب إليَّ من الغنى والسقم أحب إليَّ من الصحة والموت أحب إلي من العيش فسهل علي الموت حتى ألقاك. فإذن التائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منهما رتبة من فوّض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتًا ولا حياة، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه. فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى، وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل، فإن المنهمك أيضًا يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا إذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته. وكل ما يكدّر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة.

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان:

قال رسول الله ﷺ: «أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ» [(١)]، معناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى. وقال ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُ البَهَائِمُ مِنَ المَوْتِ ما يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ ما أَكَلْتُمْ مِنْهَا سَمِينًا» [(٢)]، وقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: «نَعَمْ مَنْ يَذْكُرُ المَوْتَ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عِشْرِينَ مَرَّةً» [(٣)]. وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أنّ ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة، والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا. وقال ﷺ: «تُحْفَةُ المُؤْمِنِ المَوْتُ» [(٤)]، وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعه شيطانه، فالموت إطلاق له من هذا العذاب، والإطلاق تحفة في حقه.

وقال ﷺ: «المَوْتُ كَفَّارَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» [(٥)] وأراد بهذا: المسلم حقًا المؤمن صدقًا الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصي إلا

---

(١) حديث «أكثروا من ذكر هاذم اللذات». أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(٢) حديث «لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا». أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم.

(٣) حديث: قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال «نعم من ذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة». تقدم.

(٤) ضعيف: حديث «تحفة المؤمن الموت». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسلا بسند حسن، [انظر ضعيف الجامع: ٢٤٠٤].

(٥) موضوع: حديث «الموت كفارة لكل مسلم». أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين إنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء، [انظر ضعيف الجامع: ٥٩٥٠].

باللمم والصغائر، فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض، قال عطاء الخراساني: مرَّ رسول الله ﷺ بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال: «شُوبُوا مَجْلِسَكُمْ بِذِكْرِ مُكَدِّرِ اللَّذَّاتِ» قالوا: وما مكدّر اللذات؟ قال: «المَوْتُ» (١). وقال أنس رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ: «أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ فَإِنَّهُ يُمَحِّصُ الذُّنُوبَ وَيُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا» (٢). وقال ﷺ: «كَفَى بِالمَوْتِ مُفرِّقًا» (٣)، وقال عليه السلام: «كفى بالموت واعظًا» (٤)، وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدّثون ويضحكون، فقال: «اذْكُرُوا المَوْتَ أَما وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» (٥)، وذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه، فقال: «كيف ذكر صاحبكم للموت؟» قال: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال: «فإِنَّ صَاحِبَكُمْ لَيْسَ هُنَالِكَ» (٦)، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال: «أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَشَدُّهُمْ اسْتِعْدادًا لَهُ أُولَئِكَ هُم الأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ» (٧).

وأما الآثار: فقد قال الحسن رحمه الله تعالى: فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحًا. وقال الربيع بن خثيم: ما غائب ينتظره المؤمن خيرًا له من الموت.

وكان يقول: لا تشعروا بي أحدًا وسلوني إلى ربي سلًا. وكتب بعض الحكماء إلى رجل

---

(١) **ضعيف**: حديث عطاء الخراساني: مر النبي ﷺ بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال: «شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا مرسلا ورويناه في أمالي الجلال من حديث أنس ولا يصح، [انظر ضعيف الجامع: ٣٤٠٩].

(٢) **ضعيف جدًا**: حديث أنس «أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف جدا، [انظر ضعيف الجامع: ١١١٠].

(٣) **ضعيف**: حديث «كفى بالموت مفرقا». أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف، ورواه ابن أبي الدنيا في البر والصلة من رواية أبي عبد الرحمن الحبلي مرسلا، [انظر ضعيف الجامع: ٤١٩١].

(٤) **ضعيف جدًا**: حديث «كفى بالموت واعظا». أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد، [انظر الضعيفة: ٥٠٢].

(٥) حديث: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال: «اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

(٦) **ضعيف جدًا**: حديث: ذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال: «كيف ذكر صاحبكم للموت؟». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال أخبرنا مالك بن مغول فذكره بلاغا بزيادة فيه، [انظر ضعيف الترغيب: ١٩٤٨].

(٧) **منكر**: حديث ابن عمر: أتيت النبي ﷺ - عاشر عشرة - فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال: «أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»، أخرجه ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكماله بإسناد جيد. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩٤٦].

من إخوانه: يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده. وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه. وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون حتى كأنّ بين أيديهم جنازة. وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل. وقال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها. وقال مطرف: رأيت فيما يرى النائم كأنّ قائلًا يقول في وسط مسجد البصرة قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم إلا والهين. وقال أشعث: كنا ندخل على الحسن فإنما هو النار وأمر الآخر وذكر الموت. وقالت صفية رضي الله تعالى عنها: إنَّ امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت: أكثري ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها. وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دمًا. وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تنخلع أوصاله، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه. وقال الحسن: ما رأيت عاقلًا قط إلا أصبته من الموت حذرًا وعليه حزينًا. وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء: عظني. فقال: لست أوّل خليفة تموت؟ قال: زدني، قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك، فبكى عمر لذلك. وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبرًا في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد. وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير: إنّ هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه. وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة: أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك. وقال أبو سليمان الداراني: قلت لأم هارون، أتحبين الموت؟ قالت: لا، قلت: لم؟ قالت: لو عصيت آدميًا ما اشتهيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته.

بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب:

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه. فالطريق فيه، أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه، فإذا باشر ذكر الموت في قلبه. فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه. وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم. وكيف تبدّدت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم، فمهما تذكر رجل رجلًا وفصل في قلبه حاله،

وكيفية موته وتوهم صورته، وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع. وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدّمت رجلاه ومفاصله. وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه. وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه. وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه، إلى عشر سنين، في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه، فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار؛ فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره. وقال عمر بن عبد العزيز: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديًا أو رائحًا إلى الله عز وجل تضعونه في صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب.

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدّد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال، أنه لا بد له من مفارقته. نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال: والله لولا الموت لكنت بك مسرورًا ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا، ثم بكى بكاء شديدًا حتى ارتفع صوته.

الباب الثاني

في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل، وسبب طوله وكيفية معالجته

فضيلة قصر الأمل:

قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر: «إذا أَصْبَحْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسكَ بِالمَسَاءِ وَإذا أَمْسَيْتَ فَلاَ تُحَدِّث نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ وَخُذْ مِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ وَمِنْ صحَّتِكَ لِسَقَمِكَ فَإِنَّكَ يا عَبْدَ اللَّهِ لا تَدْرِي ما اسْمُكَ غَدًا» (١). وروى علي كرّم الله وجهه أنه ﷺ قال: «إنَّ أَشَدَّ ما أَخَافُ عَلَيْكُمْ خَصْلَتَانِ اتِّبَاعُ الهَوَى وَطُولُ الأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الهَوَى فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَإِنَّهُ

(١) صحيح: حديث: قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء». أخرجه ابن حبان ورواه البخاري من قول ابن عمر في آخر حديث «كن في الدنيا كأنك غريب»، [البخاري: ٦٤١٦].

الحُبُّ لِلدُّنْيَا» ثم قال: «ألاَ إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَيُبْغِضُ، وَإذا أَحَبَّ عَبْدًا أَعْطَاهُ الإيمَانَ، أَلاَ إنَّ لِلدِّينِ أَبْنَاءً وَلِلدُّنْيَا أَبْنَاءً فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدِّينِ وَلا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، أَلا إنَّ الدُّنْيَا قد ارتحلت مُوَلِّيَةٌ أَلاَ إنَّ الآخِرَةُ قَد ارْتَحَلَتْ مُقْبِلَةً. أَلا وَإنَّكُمْ فِي يَوْمِ عَمَلٍ لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ أَلاَ وَإنَّكُمْ تُوشِكُونَ فِي يَوْمِ حِسَابٍ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ» (١)، وقالت أم المنذر: اطلع رسول الله ﷺ ذات عشية إلى الناس فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ أَمَا تَسْتَحُونَ مِنَ اللَّهِ؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «تَجْمَعُونَ ما لا تَأْكُلُونَ وَتَأْمَلُونَ ما لا تُدْرِكُونَ وَتَبْنُونَ ما لا تَسْكُنُونَ» (٢).

وقال أبو سعيد الخدري: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا تَعْجَبُونَ مِن أُسَامَةَ المُشْتَرِي إلى شَهْرٍ، إنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ الأَمَلِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ما طَرَفَتْ عَيْنَايَ إلاّ ظَنَنْتُ أَنَّ شَفْرَيَّ لا يُلْتَقِيانِ حَتَّى يَقْبِضَ اللَّهُ رُوحِي وَلا رَفَعَتُ طَرْفِي فَظَنَنْتُ أَنِّي وَاضِعُهُ حَتَّى أُقْبَضَ، وَلا لَقَمْتُ لُقْمَةً إلاّ ظَنَنْتُ أَنِّي لا أُسِيغُهَا حَتَّى أَغَصَّ بِهَا مِنَ المَوْتِ» ثم قال: «يا بَنِي آدَمَ إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ المَوْتَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤] » (٣)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب، فأقول له: يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول: «ما يُدْرِينِي لَعَلِّي لا أَبْلُغُهُ» (٤)، وروي أنه ﷺ أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودًا بين يديه، والآخر إلى جنبه، وأما الثالث فأبعده، فقال: «هل تدرون ما هذا» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا الإنْسَانُ وَهذا الأَجَلُ وَذاكَ الأَمَلُ يَتَعَاطَاهُ ابْنُ آدَمَ وَيَخْتَلِجُهُ الأَجَلُ دُونَ الأَمَلِ» (٥)، وقال عليه السلام: «مَثَلُ ابْنِ آدَمَ وَإلَى جَنْبِهِ تِسْعٌ

---

(١) **ضعيف جدًا**: حديث علي «إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان: اتباع الهوى وطول الأمل». الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف، **[انظر الضعيفة: ٢١٧٧]**.

(٢) حديث أم المنذر «أيها الناس أما تستحون من الله». أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم.

(٣) **ضعيف**: حديث أبي سعيد: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار - إلى شهر - فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر، إن أسامة لطويل الأمل». أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والطبراني في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب بسند ضعيف، **[انظر الضعيفة: ٤٩٧٧]**.

(٤) **صحيح**: حديث ابن عباس: كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالتراب فأقول الماء منك قريب فيقول «ما يدريني لعلي لا أبلغه». أخرجه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والبزار بسند ضعيف، **[انظر الصحيحة: ٢٦٢٩]**.

(٥) حديث: أنه أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودا بين يديه، والآخر إلى جنبه، وأما الثالث فأبعده، فقال «هل تدرون ما هذا». أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له والرامهرمزي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضا من رواية أبي المتوكل مرسلا، **[أحمد: ١٠٧٤٨، ولم يحكم عليه الشيخ الألباني في المشكاة: ١١/ ٥٨٧٨]**.

وَتِسْعُونَ مَنِيَّةً إِنْ أَخْطَأَتْهُ المَنَايا وَقَعَ فِي الهَرَمِ» (١)، قال ابن مسعود: هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع إليه، والهرم وراء الحتوف، والأمل وراء الهرم، فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع إليه فأيها أمر به أخذه فإن أخطأته الحتوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل. قال عبد الله خط لنا رسول الله ﷺ خطًا مربعًا، وخط وسطه خطًا، وخط خطوطًا إلى جنب الخط، وخط خطًا خارجًا وقال: «أَتَدْرُونَ مَا هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا الإِنْسَانُ لِلْخَطِ الَّذِي فِي الوَسَطِ وَهذا الأَجَلُ مُحِيطٌ بِهِ، وَهذِهِ الأَعْرَاضُ للخطوط التي حوله تَنْهَشُهُ إِنْ أَخْطَأَه هذا نهشه هذا، وَذاكَ الأَمَلُ يَعْنِي الخط الخارج» (٢)، وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مَعَهُ اثْنَتَانِ: الحِرْصَ وَالأَمَلُ» (٣).

وفي رواية: «وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر». وقال رسول الله ﷺ «نَجَا أَوَّلُ هذِهِ الأُمَّةِ بِاليَقِينِ وَالزُّهْدِ وَيُهْلِكُ آخِرُ هذِهِ الأُمَّةِ بِالبُخْلِ وَالأَمَلِ» (٤)، وقيل: بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض، فقال عيسى: اللهم انزع منه الأمل، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة، فقال عيسى: اللهم اردد إليه الأمل، فقال فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال: بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي: إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي: والله لا بد لك من عيش ما بقيت، فقمت إلى مسحاتي. وقال الحسن: قال رسول الله ﷺ: «أَكُلُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ» قالوا: نعم يا رسول الله قال: «قَصِّرُوا مِنَ الأَمَلِ وَثَبِّتُوا آجَالَكُمْ بَيْنَ أَبْصَارِكُمْ وَاسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ» (٥)، وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ دُنْيا تَمْنَعُ خَيْرَ الآخِرَةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ حَيَاةٍ تَمْنَعُ خَيْرَ المَمَاتِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَمَلٍ يَمْنَعُ خَيْرَ العَمَلِ» (٦).

الآثار: قال مطرف بن عبد الله: لو علمت متى أجلي لخشيت عليّ ذهاب عقلي؟ ولكن

---

(١) **صحيح**: حديث: «مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته المنايا وقع في الهرم». أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن الشخير وقال حسن، [**الترمذي**: ٢١٥٠، **وانظر صحيح الجامع**: ٥٨٢٥].

(٢) **صحيح**: حديث ابن مسعود: «خط لنا رسول الله ﷺ خطا مربعا». رواه البخاري، [**البخاري**: ٦٤١٧].

(٣) **صحيح**: حديث أنس: يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان: الحرص والأمل. وفي رواية «ويشب معه اثنان: الحرص على المال والحرص على العمر» ورواه مسلم بلفظ الثاني وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ الأول بإسناد صحيح، [**مسلم**: ١٠٤٧].

(٤) **حسن لغيره**: حديث «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، [**انظر صحيح الترغيب**: ٣٣٤٠].

(٥) **حديث الحسن** «أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلا.

(٦) حديث: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي ﷺ **وفي** إسناده ضعف وجهالة ولا أدري مَنْ حوشب.

الله تعالى منّ على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تهنؤوا بعيش ولا قامت بينهم الأسواق. وقال الحسن: السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ما مشى المسلمون في الطرق. وقال الثوري: بلغني أن الإنسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنأه العيش وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن: إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني، مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس يغفل عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني، فراق الأحبة، محمد وحزبه، وهول المطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار. وقال بعضهم: رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت: أي الأعمال أبلغ عندكم؟ قال: التوكل وقصر الأمل. وقال الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة. وسأل المفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب ثم دعا ربه فرد عليه الأمل، فرجع إلى الطعام والشراب، وقيل للحسن: يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك؟ فقال الأمر أعجل من ذلك. وقال الحسن: الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم. وقال بعضهم: أنا كرجل ماد عنقه والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه. وقال داود الطائي: لو أملت أن أعيش شهرًا لرأيتني قد أتيت عظيمًا، وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار؟.

وحكي أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرماني، وفي طرف كسائه شيء مصرور، فقال له أستاذه: أيش هذا معك؟ فقال: لوزات دفعها إليّ أخ لي وقال: أحب أن تفطر عليها، فقال: يا شقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلمتك أبدًا، قال: فأغلق في وجهي الباب ودخل. وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته: إن لكل سفر زادًا لا محالة فتزوّدوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كَمن عاين ما أعدّ الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترًا، وإنما تقرّ عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يدواي كلمًا إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح؟ أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر عيبتي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازين فيه منصوبة، لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ولو عنيت به الجبال لذابت ولو عنيت به الأرض لتشققت أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وإنكم صائرون إلى إحداهما.

وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد: فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام. وكتب آخر إلى أخ له: إن الحزن على الدنيا طويل والموت

من الإنسان قريب وللنقص في كل يوم منه نصيب، وللبلاء في جسمه دبيب، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل، والسلام. وقال الحسن: كان آدم عليه السلام قبل أن يخطىء أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حوّل فجعل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره. وقال عبد الله بن سميط: سمعت أبي يقول: أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتًا قط من غير سقم، أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذًا قط من غير عدّة، إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدّم من لذاتك أبالصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون، أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترؤون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط، ثم يقال رحم الله عبدًا عمل لما بعد الموت، رحم الله عبدًا نظر لنفسه قبل نزول الموت. وقال أبو زكريا التيمي: بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور، فطلب من يقرؤه، فأتى بوهب بن منبه فإذا فيه: ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما يلقاك غدًا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة، فبكى سليمان بكاء شديدًا.

وقال بعضهم: رأيت كتابًا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف، سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو أما بعد، فإني أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك، فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك فإن يكن الله معك فلا يأس ولا وحشة ولا فاقة، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع، ثم تبلغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فباحت الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين، فكم من مفتضح ومستور، وكم من هالك وناج، وكم من معذب ومرحوم، فيا ليت شعري ما حالي وحالك يومئذ ففي هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين، أعاننا الله وإياكم على هذا الحظر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين، فإننا نحن وبه وله والسلام.

وخطب عمر بن عبد العزيز، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثًا ولن تتركوا سدى، وإن لكم معادًا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم فخاب وشقي غدًا عبد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء وجنته التى عرضها السموات والأرض، وإنما يكون الأمان غدًا لمن خاف واتقى وباع قليلًا بكثير وفانيًا بباق وشقوة بسعادة ألا ترون

أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقون. ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه وانقطع أمله فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب، وايم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي، ولكنها سنن من الله عادلة آمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته واستغفر الله، ووضع كمه على وجهه وجعل يبكي حتى بلت دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات.

وقال القعقاع بن حكيم: قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء. وقال الثوري: رأيت شيخًا في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي، ولو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء، ولا لي على أحد شيء ولا لأحد عندي شيء. وقال عبد الله بن ثعلبة: تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار. وقال أبو محمد بن علي الزاهد: خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فانتبذ فقعد ناحية وهي تدفن، فجئت فقعدت قريبًا منه فتكلم فقال: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب. واعلم يا أخي أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤوم، واعلم أن أهل الدنيا جميعًا من أهل القبور إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون، فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون وروي أن معروفًا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة، قال محمد بن أبي توبة فقال لي تقدم، فقلت: إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها، فقال معروف: وأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل. وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته: إن الدنيا ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها الظعن عنها، فكم من عامر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى، إنما الدنيا كفئ ظلال قلص فذهب، بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير العين إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر إنها تسر قليلًا وتحزن طويلًا. وعن أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول في خطبته: أين الوضاءة الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور الوحا الوحا ثم النجا النجا.

بيان السبب في طول الأمل وعلاجه:

اعلم أنّ طول الأمل له سببان، أحدهما: الجهل، والآخر: حب الدنيا.

أما حب الدنيا: فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئًا دفعه عن نفسه. والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة فيمني نفسه أبدًا بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويقدّره في نفسه ويقدّر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر موقوفًا عليه، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدّر قربه، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوّف ووعد نفسه وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب، وإذا كبر فيقول: إلى أن تصير شيخًا. فإذا صار شيخًا قال: إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة، أو ترجع من هذه السفرة، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له، أو تفرغ من قهر هذا العدوّ الذي يشمت بك فلا يزال يسوّف ويؤخر، ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر، وهكذا على التدريج يؤخر يومًا بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته، وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون: واحزناه من سوف. والمسوف المسكين لا يدري أنّ الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدًا، وإنما يزداد بطول المدّة قوة ورسوخًا، ويظنّ أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات فما يفرغ منها إلا من اطرحها.

فما قضى أحد منها لبانته ... وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأماني كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله ﷺ: «أحبب من أحببت فإنك مفارقه»[1].

وأما الجهل: فهو أن الإنسان قد يعود على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد. وإنما قلوا لأنّ الموت في الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب. وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة، ولا يدري أنّ ذلك غير بعيد، وإن كان ذلك بعيدًا فالمرض فجأة غير بعيد، وكل مرض فإنما يقع فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدًا. ولو تفكر هذا الغافل وعلم أنّ الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب، فهو أبدًا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه، وهو أبدًا يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدّر

(١) حديث «أحبب من أحببت فإنك مفارقه». تقدم غير مرة.

أن تشيع جنازته، لأنّ هذا قد تكرّر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصوّر أن يألفه فإنه لم يقع، وإذا وقع في دفعة أخرى بعد هذه، فهو الأوّل وهو الآخر. وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بدّ وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره، ولعل اللّبن الذي يغطي به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض.

وإذا عرفت أنّ سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه.

أما الجهل: فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة.

وأما حب الدنيا: فالعلاج في إخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا الأوّلين والآخرين علاجه؛ ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا، فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير. فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطي ملك الأرض من المشرق إلى المغرب، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدّر منغص، فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة؟ فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده، ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا. أما من كان مستعدًّا فقد فاز فوزًا عظيمًا، وأما من كان مغرورًا بطول الأمل فقد خسر خسرانًا مبينًا. فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة، وكيف تتفتت عظامها، وليتفكر أنّ الدود يبدأ بحدقته اليمنى أوّلًا أو اليسرى؟ فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وما له من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر. فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدّد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له.

بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره:

اعلم أنّ الناس في ذلك يتفاوتون؛ فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبدًا قال الله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا حبًا شديدًا قال رسول الله ﷺ: «الشَّيْخُ شَابَ فِي حُبِّ طَلَبِ الدُّنْيَا وَإِنْ التَفَّتْ تَرْقُوَتَاهُ مِنَ الكِبْرِ إلاّ الَّذِينَ اتَّقوا وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» (١)، ومنهم من يأمل

(١) صحيح: حديث «الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ما هم». لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال»، [البخاري: ٦٤٢٠، مسلم: ١٠٤٦].

إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدّر لنفسه وجودًا في عام قابل، ولكن هذا يستعدّ في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف. فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة. ومنهم من يأمل مدّة الصيف أو الشتاء، فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف، ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة، فلا يستعدّ إلا لنهاره وأما للغد فلا. قال عيسى عليه السلام: لا تهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأتي فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم. ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا ﷺ: «يا عَبْدَ اللَّهِ إذا أَصْبَحْتَ فلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالمَسَاءِ، وَإذا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَحدثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ». ومنهم من لا يقدّر البقاء أيضًا ساعة كان رسول الله ﷺ يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول: «لَعَلِّي لا أَبْلُغُهُ»، ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره، وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه لما سأله رسول الله ﷺ عن حقيقة إيمانه فقال: ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى[1] وكما نقل عن الأسود وهو حبشي أنه كان يصلي ليلًا ويلتفت يمينًا وشمالًا فقال له قائل: ما هذا؟ قال: أنظر ملك الموت من أي جهة يأتيني.

فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله تعالى، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧] ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل، وكل إنسان يدعي أنه قصير الأمل وهو كاذب، وإنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يعتني بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة، فيدل ذلك على طول أمله. وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة، فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه، ثم يستأنف مثله إلى الصباح؛ وهكذا إذا أصبح. ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه، فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة؛ فالموت له سعادة والحياة له مزيد، فليكن الموت على بالك يا مسكين فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتنامًا لكل نفس أمهلت فيه.

بيان المبادرة الى العمل وحذر آفة التاخير:

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو

---

(١) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال: ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى». أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضعيف.

سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غدًا. فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسي ما وراء المدة، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي مضى، وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدًا يرى لنفسه متسعًا في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال رسول الله ﷺ «ما يَنْتَظِرُ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا إِلاّ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُقَيِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ الدَّجَّالَ، فَالدَّجَّالُ شَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ» (١)، وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغْتَنِم خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ عَمَلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ» (٢) وقال ﷺ «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِما كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ» (٣). أي إنه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما، وقال ﷺ «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ» (٤)، وقال رسول الله ﷺ «جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ وَجَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ» (٥)، وكان رسول الله ﷺ إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرّة نادى فيهم بصوت رفيع: «أتتكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة» (٦) وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ «أَنَا النَّذِيرُ، وَالمَوْتُ المُغِيرُ، وَالسَّاعَةُ المَوْعِدُ» (٧)، وقال ابن عمر: خرج رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف فقال: «ما بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا إِلاّ كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِنَا هذا فِي مِثْلِ ما مَضَى مِنْهُ» (٨) وقال ﷺ «مَثَلُ الدُّنْيَا

---

(١) ضعيف: حديث «ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غِنىً مُطْغِيًا، أو فَقْراً مُنْسِيًا». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ: «هل ينتظرون إلا غناء... الحديث» وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم، [الترمذي: ٢٣٠٦، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي].

(٢) صحيح: حديث ابن عباس «اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك». أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسلا، [انظر صحيح الجامع: ١٠٧٧].

(٣) صحيح: حديث «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». أخرجه البخاري من حديث ابن عباس وقد تقدم.

(٤) صحيح: حديث «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن، [صححه الألباني في صحيح الترمذي: ٢٤٥٠].

(٥) حسن: حديث «جاءت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه». أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي بن كعب، [صححه الألباني في صحيح الترمذي: ٢٤٥٧].

(٦) ضعيف: حديث «كان رسول الله ﷺ إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة». أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السليمي مرسلا، [انظر ضعيف الجامع: ٨٥].

(٧) حديث أبي هريرة «أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد». أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي بإسناد فيه لين.

(٨) ضعيف: حديث ابن عمر: خرج رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف فقال: «ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن وللترمذي نحوه من

كَمَثَلِ ثَوْبٍ شُقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَبَقِيَ مُتَعَلِّقًا بِخَيْطٍ فِي آخِرِهِ فَيُوشِكُ ذَلِكَ الخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَ»(١) وقال جابر: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرّت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول: صَبَّحَتْكُمْ وَمَسَّيتُكُمْ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وقرن بين أصبعيه»(٢) وقال ابن مسعود رضي الله عنه: تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فقال: «إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الصَّدْرَ انْفَسَحَ» فقيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف؟ قال: «نَعَمْ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ وَالإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الخُلُودِ وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ»(٣) وقال السدي: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] أي أيكم أكثر للموت ذكرًا وأحسن له استعدادًا وأشد منه خوفًا وحذرًا. وقال حذيفة: ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي: أيها الناس الرحيل الرحيل. وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾ [المدثر: ٣٥-٣٧] في الموت.

وقال سحيم مولى بني تميم جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل عليّ فقال: أرحني بحاجتك فإني أبادر، قلت: وما تبادر؟ قال: ملك الموت رحمك الله، قال: فقمت عنه وقام إلى صلاته. ومر داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال: دعني إنما أبادر خروج نفسي قال عمر رضي الله عنه: التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للآخرة. وقال المنذر: سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه: ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر؛ ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولا يراني. وكان الحسن يقول في موعظته: المبادرة المبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل، رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤] يعني الأنفاس، آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهادًا شديدًا، فقيل له: لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق؟ فقال: إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجلي أقل من ذلك قال: فلم يزل على ذلك حتى مات. وكان يقول لامرأته: شدي رحلك فليس على جهنم معبر. وقال بعض الخلفاء على

حديث أبي سعيد وحسنه، [انظر ضعيف الترغيب: ١٦٤١].

(١) ضعيف: حديث «مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح، [انظر ضعيف الجامع: ٥٢٥١].

(٢) صحيح: حديث جابر: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه». أخرجه مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له، [مسلم: ٨٦٧].

(٣) حديث ابن مسعود: تلا رسول الله ﷺ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فقال «إن النور إذا دخل الصدر انفسح». أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرك وقد تقدم.

منبره: عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قومًا صيح بهم فانتبهوا واعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، واستعدّوا للموت فقد أظلكم وترحلوا فقد جدّ بكم، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة، وإن غائبًا يجدّ به الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة، وإن قادمًا يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدّة، فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدّم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له، والشيطان موكل به يمينه التوبة ليسوّفها ويزين إليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها، وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيا لها حسرة على ذي غفلة أو يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء وإنه بيده الخير دائمًا فعّال لما يشاء.

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤] قال بالشهوات واللذات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ قال بالتوبة ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ قال: شككتم ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قال: الموت. ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤] قال: الشيطان: وقال الحسن: تصبروا وتشددوا فإنما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم. وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة.

وقال أبو عبيدة الباجي: دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبًا بكم وأهلًا حياكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام، هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن، فإن من رأى محمدًا ﷺ فقد رآه غاديًا ورائحًا لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر إليه الوحا الوحا النجا النجا علام تعرجون، أتيتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معًا، رحم الله عبدًا جعل العيش عيشًا واحدًا فأكل كسرة ولبس خلقًا ولزق بالأرض واجتهد في العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك [1]. وقال عاصم الأحول: قال لي فضيل الرقاشي وأنا سائله يا هذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخلص إليك دونهم ولا تقل أذهب هاهنا وهاهنا فينقطع عنك النهار في لا شيء، فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئًا قط أحسن طلبًا ولا أسرع إدراكًا من حسنة حديثة لذنب قديم.

---

(١) حديث أبي عبيدة الباجي: دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال: مرحبا بكم. أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه.

الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديرًا بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقًا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده، لا سيما وهو في كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء: كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك. وقال لقمان لابنه: يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك. والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور. واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها، ومن لم يذقها فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزع على شدة ما هم فيه. فأما القياس الذي يشهد له: فهو أن كلّ عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم، فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح، فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسري إلى الروح يتألم، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم، فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده!

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم، فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرًا وباطنًا إلا وتصيبه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم.

وأما الجراحة: فإنما تصيب الموضع الذي مسه الحديد فقط، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار، فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم، فلا تسأل عن كربه وألمه، حتى قالوا: إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح؟

وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه، وبلغ كل موضع منه فهدّ كل قوّة وضعّف كل جارحة فلم يترك له قوّة الاستغاثة.

أما العقل: فقد غشيه وشوّشه، وأما اللسان فقد أبكمه، وأما الأطراف فقد ضعفها. ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك، فإن بقيت فيه قوّة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارًا وغرغرة من حلقه وصدره، وقد تغير لونه واربدّ حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته، وقد جذب منه كل عرق على حياله، فالألم منتشر في داخله وخارجه، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه، وتتقلص الشفتان، ويتقلص اللسان إلى أصله، وترتفع الأنثيان إلى أعالي موضعهما، وتخضر أنامله.

فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقًا واحدًا لكان ألمه عظيمًا فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم؟ لا من عرق واحد بل من جميع العروق. ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجًا فتبرد أوّلًا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة، وقال رسول الله ﷺ: «تُقْبَلُ تَوْبَةُ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[(١)]. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾[النساء :١٨] قال: إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ سَكَرَاتِ المَوْتِ»[(٢)] والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوّة والولاية، ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهوّن عليّ هذه السكرة ـ يعني الموت ـ فقد خفت الموت مخافة أوقفني خوفي من الموت على الموت.

وروي أن نفرًا من بني إسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض: لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتًا تسألونه؟ فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال: يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي. وقالت عائشة رضي الله عنها: لا أغبط أحد يهوّن عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ. وروي أنه عليه السلام كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَأْخُذُ الرُّوحَ مِنْ بَيْنِ العَصَبِ وَالقَصَبِ وَالأَنَامِلِ. اللَّهُمَّ فَأَعِنِّي عَلَى المَوْتِ وَهَوِّنْهُ عَلَيَّ»[(٣)]. وعن الحسن: أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه فقال: «هُوَ قَدْرَ ثَلاثِمِائَةِ

---

(١) **حسن**: حديث «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر». أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر، [**الترمذي**: ٣٥٣٧، **وانظر صحيح الجامع**: ١٩٠٣].

(٢) حديث كان يقول «اللهم هون على محمد سكرات الموت». تقدم.

(٣) حديث كان يقول «اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل. اللهم فأعني على الموت

ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ» (١)، وسئل ﷺ عن الموت وشدّته فقال: «إنَّ أَهْوَنَ المَوْتِ بِمَنْزِلَةِ حَسَكَةٍ فِي صُوفٍ فَهَلْ تَخْرُجُ الحَسَكَةُ مِنَ الصُّوفِ إلا وَمَعَها صُوفٌ» (٢)، ودخل ﷺ على مريض ثم قال: «إنِّي أَعْلَمُ ما يَلْقَى، ما مِنْهُ عِرْقٌ إلاَّ وَيَأْلَمُ لِلْمَوْتِ عَلَى حِدَتِهِ» (٣)، وكان علي كرّم الله وجهه يحض على القتال ويقول: إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليَّ من موت على فراش. وقال الأوزاعي: بلغنا أنّ الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره. وقال شدّاد بن أوس: الموت أفظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن، وهو أشدّ من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلي في القدور، ولو أنّ الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة، وإذا كان للكافر معروف لم يجز به هوّن عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار. وعن بعضهم: أنه كان يسأل كثيرًا من المرضى كيف تجدون الموت؟ فلما مرض قيل له: فأنت كيف تجده؟ فقال: كأن السموات مطبقة على الأرض وكأنّ نفسي يخرج من ثقب إبرة.

وقال ﷺ: «موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر» (٤)، وروي عن مكحول عن النبي ﷺ أنه قال: «لَوْ أَنَّ شَعْرَةً مِنْ شَعْرِ المَيِّتِ وُضِعَتْ عَلَى أَهْلِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ لَمَاتُوا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى لأَنَّ فِي كُلِّ شَعْرَةِ المَوْتَ وَلا يَقَعُ المَوْتُ بِشَيْءٍ إلاَّ مَاتَ» (٥)، ويروى: «لَوْ أَنَّ

وهونه علي». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث صعمة بن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي.

(١) حديث الحسن: أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه فقال: «هو قدر ثلاثمائة ضربة بالسيف». أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات.

(٢) ضعيف: حديث سئل ﷺ عن الموت وشدته فقال: «إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلا، [انظر ضعيف الجامع: ١٨٤٢].

(٣) حديث: دخل ﷺ على مريض فقال: «إني أعلم ما يلقى ما منه عرق إلا ويألم للموت على حدته». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في المرض والكفارات من رواية عبيد بن عمير مرسلا مع اختلاف ورجاله ثقات.

(٤) صحيح: حديث «موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر». أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد صحيح قال «وأخذة أسف» ولأبي داود من حديث خالد السلمي «موت الفجأة أخذة أسف»، [أحمد: ١٥٠٧٠، وانظر صحيح الجامع: ٦٦٣١].

(٥) حديث مكحول «لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا بإذن الله تعالى». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رفعه وفيه «لو أن ألم شعرة» وزاد «وإن في يوم القيامة لتسعين هولا أدناها هولا يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف» وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الإسناد.

قَطْرَةٌ مِنْ أَلَمِ المَوْتِ وُضِعَتْ عَلَى جِبَالِ الدُّنْيَا كُلِّها لَذَابَتْ» [١]، وروي أنّ إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له: كيف وجدت الموت يا خليلي؟ قال: كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب. فقال: أما إنا قد هوّنا عليك. وروي عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه: يا موسى كيف وجدت الموت؟ قال: وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير، وروي عنه أنه قال: وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب. وروي عن النبي ﷺ أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول: «اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيَّ سَكَرَاتِ المَوْتِ» [٢]، وفاطمة رضي الله عنها تقول: واكرباه لكربك يا أبتاه وهو يقول: «لا كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ اليَوْمِ» [٣]. وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار: يا كعب حدثنا عن الموت؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين إنّ الموت كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق، ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى. وقال النبي ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لَيُعَالِجُ كُرَبَ المَوْتِ وَسَكَرَاتِ المَوْتِ وَإِنَّ مَفَاصِلَهُ لَيُسَلِّمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ تَقُولُ: عَلَيْكَ السَّلامُ تُفَارِقُنِي وَأُفَارِقُكَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ» [٤].

فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه. فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي فإن دواهي الموت ثلاث:

(الأولى): شدة النزع كما ذكرناه.

(الداهية الثانية): مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب؛ فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوّة لم يطق رؤيته. فقد روي عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت: هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر؟ قال: لا تطيق ذلك، قال: بلى، قال: فأعرض عني فأعرض عنه. ثم التفت فإذا هو برجل أسود قاتم الشعر، منتن الريح، أسود الثياب، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان؛ فغشي على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد الموت إلى صورته الأولى

---

(١) حديث «لو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت». لم أجد له أصلا ولعل المصنف لم يورده حديثا فإنه قال: ويروى.

(٢) صحيح: حديث: إنه كان عنده قدح من ماء عند الموت، فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول «اللهم هون علي سكرات الموت». متفق عليه من حديث عائشة، [البخاري: ٦٥١٠].

(٣) صحيح: حديث: إن فاطمة قالت واكرباه لكربك يا أبتاه! وهو يقول: «لا كرب على أبيك بعد اليوم». أخرجه البخاري من حديث أنس بلفظ: واكرب أبتاه، وفي رواية لابن خزيمة: واكرباه، [البخاري: ٤٤٦٢].

(٤) حديث «إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول: عليك السلام تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة». رويناه في الأربعين لأبي هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس وأبو هدبة هالك.

فقال: يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «أَنْ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ كانَ رَجُلًا غَيُورًا وَكانَ إذا خَرَجَ أَغْلَقَ الأَبْوَابَ، فَأَغْلَقَ ذاتَ يَوْمٍ وَخَرَجَ فَأَشْرَفَتِ امْرَأَتُهُ فإذا هِيَ بِرَجُلٍ فِي الدَّارِ فَقَالَتْ: مَنْ أَدْخَلَ هذا الرَّجُلَ لَئِنْ جَاءَ دَاوُدُ لَيَلْقَيَنَّ مِنْهُ عَنَاءً؟ فَجَاءَ دَاوُدُ فَرَآهُ فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنا الَّذِي لا أَهَابُ المُلُوكَ وَلاَ يُمْنَعُ مِنِّي الحِجَابُ، فَقَالَ: فَأَنْتَ وَاللَّهِ إِذَنْ مَلَكُ المَوْتِ وَزَمَلَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلامُ مَكَانَهُ»[1].

وروي أنّ عيسى عليه السلام مرَّ بجمجمة فضربها برجله فقال: تكلمي بإذن الله فقالت: يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا وبينا أنا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودي وحشمي على سرير ملكي، إذ بدا لي ملك الموت فزال مني كل عضو على حياله، ثم خرجت نفسي إليه، فيا ليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة ويا ليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون، فقد حكى الأنبياء مجرّد سكرة النزع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك، ولو رآها في منامه لياة لتنغص عليه بقية عمره فكيف برؤيته في مثل تلك الحال؟.

وأما المطيع فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلًا غيورًا وكان له بيت يتعبد فيه، فإذا خرج أغلقه، فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال: من أدخلك داري؟ فقال: أدخلنيها ربها فقال: أنا ربها، فقال: أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك، فقال: من أنت من الملائكة؟ قال: أنا ملك الموت، قال: هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم، فأعرض عني، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه، فقال: يا ملك الموت، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه.

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين. قال وهيب: بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله، فإن كان مطيعًا قالا له: جزاك الله عنا خيرًا فرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا، وإن كان فاجرًا قالا له: لا جزاك الله عنا خيرًا فرب مجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلا جزاك الله عنا خيرًا. فذلك شخوص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدًا.

(الداهية الثالثة): مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة؛ فإنهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم، ولن تخرج أرواحهم ما لم

---

(١) حديث أبي هريرة «أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا». أخرجه أحمد بإسناد جيد نحوه وابن أبي الدنيا في كتاب الموت بلفظه، [أحمد: ٩١٤٨].

يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين: إما أبشر يا عدوّ الله بالنار، أو أبشر يا ولي الله بالجنة. ومن هذا كان خوف أرباب الألباب، وقد قال النبي ﷺ: «لَنْ يَخْرُجَ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَعْلَمُ أَيْنَ مَصِيرُهُ وَحَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ أَو النَّارِ»(١)، وقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» فقالوا: كلنا نكره الموت قال: «لَيْسَ ذَاكَ بِذَاكَ إِنَّ المُؤْمِنَ إذا فُرِجَ لَهُ عَمَّا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»(٢). وروي أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود ـ وهو لما به من آخر الليل: قم فانظر أي ساعة هي؟ فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال: قد طلعت الحمراء فقال حذيفة: أعوذ بالله من صباح إلى النار. ودخل مروان على أبي هريرة، فقال مروان: اللهم خفف عنه، فقال أبو هريرة: اللهم اشدد ثم بكى أبو هريرة وقال: والله ما أبكي حزنًا على الدنيا ولا جزعًا من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم بنار.

وروي في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ إذا رَضِيَ عَنْ عَبْدٍ قَالَ: يا مَلَكَ المَوْتُ اذْهَبْ إِلَى فُلانٍ فَأْتِنِي بِرُوحِهِ لأُرِيحَهُ، حَسْبِي مِنْ عَمَلِهِ قَدْ بَلَوْتُهُ فَوَجَدْتُهُ حَيْثُ أَحِبُّ فَيَنْزِلَ مَلَكُ المَوْتِ وَمَعَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنَ المَلائِكَةِ وَمَعَهُمْ قُضْبانُ الرَّيْحَانِ وَأُصُولُ الزَّعْفَرَانِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُبَشِّرُهُ بِبِشَارَةٍ سِوَى بِشَارَةِ صَاحِبِهِ، وَتَقُومُ المَلائِكَةُ صَفَّيْنِ لِخُرُوجِ رُوحِهِ، مَعَهُمُ الرَّيْحَانُ، فإذا نَظَرَ إِلَيْهِمْ إبليس وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ ثُمَّ صَرَخَ. قَالَ: فَيَقُول لَهُ جُنُودُهُ: ما لَكَ يا سَيِّدَنا فيقولُ: أَمَا تَرَوْنَ مَا أُعْطِيَ هذا العَبْدُ مِنَ الكَرَامَةِ أَيْنَ كُنْتُمْ مِنْ هذا؟ قالوا: قَدْ جَهِدْنا بِهِ فَكانَ مَعْصُومًا»(٣). وقال الحسن: لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه. وقيل لجابر ابن زيد ـ عند الموت ـ: ما تشتهي؟ قال: نظرة إلى الحسن، فلما دخل عليه الحسن قيل له: هذا الحسن فرفع طرفه إليه ثم قال: يا إخواناه الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة. وقال محمد بن واسع - عند

---

(١) صحيح: حديث «لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفا «لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار» وفي رواية «حرام عل نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار» وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد لذلك «إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته... الحديث»، [البخاري: ٦٥٠٧، مسلم: ٢٦٨٣].

(٢) حديث «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت، [البخاري: ٦٥٠٧، مسلم: ٢٦٨٣].

(٣) حديث «إن الله إذا رضي عن عبد قال: يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأريحه». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري بإسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع وللنسائي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح «إذا حضر الميت أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان... الحديث»، [النسائي: ١٨٣٣، وانظر صحيح الجامع: ٤٩٠].

الموت- : يا إخواناه عليكم السلام إلى النار أو يعفو الله. وتمنى بعضهم أن يبقى في النزع أبدًا ولا يبعث لثواب ولا عقاب. فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت. وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع. ولكننا لا نطول بذكره وإعادته.

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت:

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقًا بالشهادة، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى.

(أما الصورة): فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ارْقُبُوا المَيْتَ عِنْدَ ثَلاثٍ: إذا رَشَحَ جَبِينُهُ وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَيَبِسَتْ شَفَتَاهُ فَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ قَدْ نَزَلَتْ بِهِ، وَإذا غَطَّ غَطِيطَ المَخْنُوقِ وَاحْمَرَّ لَوْنَهُ وَارْبَدِتْ شَفَتَاهُ فَهُوَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ قَدْ نَزَلَ بِهِ» (١).

(وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة): فهي علامة الخير. قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ: لا إلهَ إلا اللَّهُ» (٢) وفي رواية حذيفة «فَإِنَّهَا تَهْدِمُ ما قَبْلَها مِنَ الخَطَايَا» (٣) وقال عثمان: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَن لا إلهَ إلاّ اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ» (٤)، وقال عبيد الله: «وَهُوَ يَشْهَدُ» وقال عثمان: إذا احتضر الميت فلقنوه: «لا إله إلا الله» فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة. وقال عمر رضي الله عنه: احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم يرون ما لا ترون ولقنوهم: لا إله إلا الله. وقال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حَضَر مَلَكُ المَوْتِ رَجُلًا يَمُوتُ فَنَظَرَ فِي قَلْبِهِ فَلَمَ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا، فَفَكَّ لَحْيَيْهِ فَوَجَدَ طَرَفَ لِسَانِهِ لاصِقًا بِحَنَكِهِ يقولُ: لا إلهَ إلاّ اللَّهُ، فَغُفِرَ لَهُ بِكَلِمَةِ الإخْلاصِ» (٥).

وينبغي للملقن أن لا يلح في التلقين ولكن يتلطف، فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدي إلى استثقاله التلقين وكراهيته لكلمة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة.

وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه. وإن كان القلب مشغوفًا بالدنيا ملتفتًا إليها متأسفًا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم

(١) حديث «ارقبوا الميت عند ثلاث». أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث سلمان، ولا يصح.
(٢) حديث «لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله». تقدم.
(٣) حديث حذيفة: فإنها تهدم ما قبلها من الخطايا. تقدم.
(٤) حديث: من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة. تقدم.
(٥) **منكر**: حديث أبي هريرة: حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا [انظر الضعيفة: ٢٥٩٠]. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والطبراني والبيهقي في الشعب وإسناده جيد إلا أن في رواية البيهقي رجلا لم يسم وسمي في رواية الطبراني إسحاق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف.

ينطبق القلب على تحقيقها، وقع الأمر في خطر المشيئة، فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول.

(وأما حسن الظنّ): فهو مستحب في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظنّ بالله. دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال: أخبرني كيف ظنك بالله؟ قال: أغرقتني ذنوب لي وأشرفت علي هلكة ولكني أرجو رحمة ربي فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال: الله أكبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بي ما شَاءَ» (١) ودخل النبي ﷺ على شاب وهو يموت فقال: «كيف تجدك» قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال النبي ﷺ: «ما اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هذا المَوْطِنِ إلاّ أَعْطَاهُ اللَّهُ الَّذِي يَرْجُو وَآمَنَهُ مِنَ الَّذِي يَخَافُ» (٢).

وقال ثابت البناني: كان شاب به حدّة وكان له أم تعظه كثيرًا وتقول له: يا بني إن لك يومًا فاذكر يومك، فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه وجعلت تقول له: يا بني قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يومًا، فقال: يا أمه إن لي ربًّا كثير المعروف وإني لأرجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه. قال ثابت: فرحمه الله بحسن ظنه بربه. وقال جابر بن وداعة: كان شاب به رهق فاحتضر، فقالت له أمه: يا بني توصي بشيء؟ قال: نعم، خاتمي لا تسلبينيه فإن فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني، فلما دفن رؤى في المنام فقال: أخبروا أمي أن الكلمة قد نفعتني وأن الله قد غفر لي. ومرض أعرابي فقيل له إنك تموت، فقال: أين يذهب بي؟ قالوا: إلى الله، قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه. وقال أبو المعتمر بن سليمان: قال أبي: لما حضرته الوفاة: يا معتمر حدّثني بالرخص لعلي ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظنّ به. وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه.

بيان الحسرة عند لقاء الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها:

قال أشعث بن أسلم: سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عينان: عين في وجهه وعين في قفاه فقال: يا ملك الموت ما تصنع إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع؟ قال: أدعوا الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعي هاتين، وقال: قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء، قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل. وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام ما لي لا أراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا؟ قال ما أنا بذلك بأعلم منك

---

(١) حديث: دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال: أخبرني كيف ظنك بالله؟. أخرجه ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقي في الشعب به جميعا.

(٢) حديث: دخل النبي ﷺ على شاب وهو يموت فقال: «كيف تجدك؟». تقدم.

إنما هي صحف أو كتب تلقى إليّ فيها أسماء. وقال وهب بن منبه: كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فأتي بها فلم تعجبه، حتى أتي بدواب فركب أحسنها؛ فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فملأه كبرًا. ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرًا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام، فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمرًا عظيمًا قال: إن لي إليك حاجة قال: اصبر حتى أنزل قال: لا الآن، فقهره على لجام دابته فقال: اذكرها قال: هو سر، فأدنى له رأسه فسارّه وقال: أنا ملك الموت فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال: دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم، قال: لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبدًا فقبض روحه فخرّ كأنه خشبة. ثم مضى فلقي عبدًا مؤمنًا في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال: هات فسارّه وقال: أنا ملك الموت فقال: أهلًا وسهلًا بمن طالت غيبته عليّ فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إليّ أن ألقاه منك فقال ملك الموت: اقض حاجتك التي خرجت لها، فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى قال: فاختر علي أي حال شئت أن أقبض روحك؟ فقال: تقدر على ذلك؟ قال نعم إني أمرت بذلك، قال: فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم اقبض روحي وأنا ساجد، فقبض روحه وهو ساجد.

وقال أبو بكر بن عبد الله المزني: جمع رجل من بني إسرائيل مالًا فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي؟ فأتي بشيء كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره فلما نظر إليه بكى تحسرًا عليه، فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له: ما يبكيك؟ فوالذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرّق بين روحك وبدنك قال: فالمهلة حتى أفرّقه قال: هيهات انقطعت عنك المهلة فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك؟ فقبض روحه.

وروي أنّ رجلًا جمع مالًا فأوعى ولم يدع صنفًا من المال إلا اتخذه، وابتنى قصرًا وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرسًا من غلمانه، ثم جمع أهله وصنع لهم طعامًا وقعد على سريره ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون فلما فرغوا قال: يا نفس أنعمي لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين، فقرع الباب بشدّة عظيمة قرعًا أفزعه وهو على فراشه، فوثب إليه الغلمان وقالوا: ما شأنك؟ فقال: ادعوا إليّ مولاكم فقالوا: وإلى مثلك يخرج مولانا؟ قال: نعم فأخبروه بذلك، فقال: هلا فعلتم به وفعلتم، فقرع الباب قرعة أشدّ من الأولى، فوثب إليه الحرس فقال: أخبروه أني ملك الموت، فلما سمعوه ألقي عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخشع، فقال: قولوا له قولًا لينًا وقولوا هل تأخذ به أحدًا؟ فدخل عليه وقال: اصنع في مالك ما أنت صانع، فإني لست بخارج منها حتى أخرج روحك،

فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه: لعنك الله من مال أنت شغلتني عن عبادة ربي ومنعتني أن أتخلى لربي، فأنطق الله المال فقال: لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد المتقي عن بابهم وكنت تنكح المتنعمات بي، وتجلس مجالس الملوك بي وتنفقني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتني في سبيل الخير نفعتك؟ خلقت يا ابن آدم من تراب فمنطلق ببر ومنطلق بإثم، ثم قبض ملك الموت روحه فسقط. وقال وهب بن منبه: قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله ثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة: لمن كنت أشدّ رحمة ممن قبضت روحه؟ قال: أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأتيتها وقد ولدت مولودًا فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لا متعهد له بها. فقالت الملائكة: الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذي رحمته فقال ملك الموت: سبحان اللطيف لما يشاء! قال عطاء بن يسار: إذا كانت ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال اقبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال فإنّ العبد ليغرس الغراس وينكح الأزواج ويبني البنيان وإنّ اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري.

وقال الحسن: ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه، فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء، فيأخذ ملك الموت بعضادتي الباب فيقول: والله ما أكلت له رزقًا ولا أفنيت له عمرًا ولا انتقصت له أجلًا، وإن لي فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقي منكم أحدًا. قال الحسن: فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم. وقال يزيد الرقاشي بينما جبار من الجبابرة من بني إسرائيل جالس في منزله قد خلا ببعض أهله، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعًا مغضبًا فقال له: من أنت ومن أدخلك علي داري؟ فقال: أما الذي أدخلني الدار فربها، وأما أنا فالذي لا يمنع مني الحجاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف صولة المتسلطين ولا يمتنع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد. قال: فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكبًا على وجهه، ثم رفع رأسه إليه مستجديًا متذللًا له فقال له: أنت إذن ملك الموت قال: أنا هو، قال: فهل أنت ممهلني حتى أحدث عهدًا؟ قال هيهات انقطعت مدّتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل قال فإلى أين تذهب بي؟ قال: إلى عملك الذي قدّمته وإلى بيتك الذي مهدته، قال: فإني لم أقدم عملًا صالحًا ولم أمهد بيتًا حسنًا، قال: فإلى لظى نزاعة للشوي، ثم قبض روحه فسقط ميتًا بين أهله، فمن بين صارخ وباك. قال يزيد الرقاشي: لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر. وعن الأعمش عن خيثمة قال: دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فلما خرج قال الرجل من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: لقد رأيته ينظر إليّ كأنه يريدني قال: فماذا تريد؟ قال: أريد أن تخلصني منه فتأمر الريح حتى

تحملني إلى أقصى الهند ففعلت الريح ذلك، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن آتاه ثانيًا رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي، قال: نعم كنت أتعجب منه لأني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك.

الباب الرابع في وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده وفاة رسول الله ﷺ:

اعلم أن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حيًا وميتًا وفعلًا وقولًا وجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه، وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته؟ لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام، فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان، وخيرات حسان، بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن، فاشتد مع ذلك في النزع كربه وظهر أنينه، وترادف قلقه وارتفع حنينه، وتغير لونه وعرق جبينه، واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه، حتى بكى لمصرعه من حضره، وانتحب لشدة حاله من شهد منظره، فهل رأيت منصب النبوة دافعًا عنه مقدورًا؟ وهل راقب الملك فيه أهلًا وعشيرًا؟ وهل سامحه إذا كان للحق نصيرًا وللخلق بشيرًا ونذيرًا؟ هيهات بل امتثل ما كان به مأمورًا واتبع ما وجده في اللوح مسطورًا. فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود، والحوض المورود، وهو أوّل من تنشق عنه الأرض، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض، فالعجب أنا لا نعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات وقرناء المعاصي والسيئات فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحبيب رب العالمين، لعلنا نظن أننا مخلدون، أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون، هيهات هيهات بل نتيقن أنا جميعًا على النار واردون، ثم لا ينجو منها إلا المتقون، فنحن للورود مستيقنون، وللصدور عنها متوهمون، لا بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين، فما نحن والله من المتقين.

وقال الله رب العالمين: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢] فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين؟ فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين، فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين. ثم انظر إلى سيد المرسلين فإنه كان من أمره على يقين، إذ كان سيد النبيين وقائد المتقين، واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتدّ أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى، قال ابن مسعود رضي الله عنه: دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق، فنظر إلينا فدمعت عيناه ﷺ ثم قال: «مَرْحَبًا بِكُمْ حَيَّاكُم اللَّهُ، آواكم الله نَصَرَكُم اللَّهُ، وَأُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّه، وأوصي بكم الله، إني لكم منه

نذير مبين، ألا تعلوا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الأوفى، فأقرؤوا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي مني السلام ورحمة الله»[١].

وروي أنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام عند موته: «مَنْ لأُمَتِي بَعْدِي» ؟ فأوحى الله تعالى إلى جبريل: أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته، وبشره بأنه أسرع الناس خروجًا من الأرض إذا بعثوا، وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته. فقال: «الآنَ قَرَّتْ عَيْنِي»[٢]، وقالت عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار، ففعلنا ذلك فوجد راحة، فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أُحُد ودعا لهم وأوصى بالأنصار فقال: «أَمَّا بَعْدُ: يا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ فَإِنَّكُمْ تَزِيدُونَ وَأَصْبَحَتِ الأَنْصَارُ لا تَزِيدُ عَلَى هيئتها التي هِيَ عَلَيْها اليَوْمَ وإنَّ الأَنْصَارَ عيْبَتِي الّتِي أَوَيْتُ إلَيْها فَأَكْرموا كَرِيمَهُمْ يَعْفِي مُحْسِنَهُمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ» ثم قال: «إنَّ عَبْدًا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيا وَبَيْنَ ما عِنْدَ اللَّهِ فَاخْتَارَ ما عِنْدَ اللَّهِ» فبكى أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه، فقال النبي ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ يا أبا بَكْرٍ سُدُّوا هذه الأَبْوَابَ الشَّوَارِعَ فِي المَسْجِدِ إلاّ بَابَ أَبِي بَكْرٍ فَإِنِّي لا أَعْلَمُ أَمْرًا أَفْضَلَ عِنْدِي فِي الصُّحْبَةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ»[٣]، قالت عائشة رضي الله عنها: فقبض ﷺ في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت، فدخل علي أخي عبد الرحمن وبيده سواك فجعل ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك، فقلت له: آخذه لك، فأومأ برأسه أن: نعم، فناولته إياه فأدخله في فيه فاشتدّ عليه فقلت: ألينه لك؟ فأومأ برأسه أن: نعم، فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول «لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ إنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ» ثم نصب يده يقول: «الرَّفِيقَ الأَعْلَى... الرَّفِيقَ الأَعْلَى» فقلت: إذن والله لا يختارنا[٤].

---

(١) حديث ابن مسعود: دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق». رواه البزار وقال: هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة، قال: وعبد الرحمن الأصبهاني لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عمن أخبره عن مرة، قال: ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة. قلت: وقد روى من غير ما وجه. رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود. ورويناه في مشيخة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان ، والحسن العربي إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط.

(٢) حديث: أنه ﷺ قال لجبريل عند موته «من لأمتي بعدي». أخرجه الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه «من لأمتي المصطفاة من بعدي» قال: أبشر يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال "الآن طابت نفسي" وإسناده ضعيف.

(٣) حديث عائشة: أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار. أخرجه الدارمي في مسنده وفيه إبراهيم بن المختار مختلف فيه عن محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة.

(٤) صحيح: حديث عائشة: قبض ﷺ في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت. متفق عليه، [البخاري: ٤٤٤٩، مسلم: ٢٤٤٤].

وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال: لما رأت الأنصار أنّ النبي ﷺ يزداد ثقلًا أطافوا بالمسجد، فدخل العباس رضي الله عنه على النبي ﷺ فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه علي رضي الله عنه فأعلمه بمثله، فمدّ يده وقال «ها» فتناولوه، فقال: «ما تقولون» قالوا: نقول: نخشى أن تموت، وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي ﷺ، فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكئًا على علي والفضل، والعباس أمامه، ورسول الله ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر، وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَخَافُونَ عَلَيَّ المَوْتَ كَأَنَّهُ اسْتِنْكَارٌ مِنْكُم لِلْمَوْتِ، وَما تُنْكِرُونَ مِنْ مَوْتِ نَبِيِّكُمْ أَلَمْ أُنْعَ إِلَيْكُمْ وَتُنْعَى إِلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ؟ هَلْ خُلِّدَ نَبِيٌّ قَبْلِي فِيمَنْ بُعِثَ فَأُخَلَّدَ فِيكُمْ؟ أَلا إِنِّي لاحِقٌ بربِّي وإِنَّكُمْ لاحِقُونَ بِهِ وَإِنِّي أوصيكُمْ بالمَهَاجِرِينَ الأَوَّلِين خَيْرًا وَأُوصِي المُهَاجِرِينَ فِيما بَيْنَهُمْ فإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [العصر :١-٣] إلى آخرها وإِنَّ الأُمُورَ تَجْرِي بإِذْنِ اللَّهِ فَلا يَحْمِلَنَّكُم اسْتِبْطَاءُ أَمْرٍ عَلَى اسْتِعْجَالِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ أَحَدٍ ومنْ غَالَبَ الله غَلَبَهُ وَمَنْ خَادَعَ اللَّهَ خَدَعَهُ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد :٢٢] وَأُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ خَيْرًا فَإِنَّهُم الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ أَلَمْ يُشَاطِرُوكُمْ الثِّمَارَ أَلَمْ يُوَسِّعُوا عَلَيْكُمْ فِي الدِّيَارِ أَلَمْ يُؤْثِرُوكُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِهِمُ الخَصَاصَةُ؟ أَلا فَمَنْ وَلِيَ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَلْيَتَجَاوَزْ عَن مُسِيئِهِمْ، أَلا وَلا تَسْتَأْثِرُوا عَلَيْهِمْ أَلا وَإِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لاحِقُونَ بِي، أَلا وَإِنَّ مَوْعِدَكُم الحَوْضُ، حَوْضِي أَعْرَضُ مِمَّا بَيْنَ بُصْرَى الشَّامِ وَصَنْعَاءِ اليَمَنِ، يَصُبُّ فِيهِ مِيزَابُ الكَوْثَرِ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ وَأَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، حَصْبَاؤُهُ اللُّؤْلُؤُ وبَطْحَاؤُهُ المِسْكُ، مَنْ حُرِمَهُ فِي المَوْقِفِ غَدًا حُرِمَ الخَيْرَ كُلَّهُ، أَلا فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرِدَهُ عَلَيَّ غَدًا فَلْيَكْفُف لِسَانه وَيَدَهُ إِلاَّ مِمَّا يَنْبَغِي».

فقال العباس: يا نبي الله أوص بقريش فقال: «إِنَّمَا أوصِي بِهذا الأَمْرِ قُرَيْشًا وَالنَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ بَرُّهُمْ لِبَرِّهُمْ وَفَاجِرُهُمْ لِفَاجِرِهِمْ، فَاسْتَوْصُوا آلَ قُرَيْشٍ بِالنَّاسِ خَيْرًا، يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّ الذُّنُوبَ تُغَيِّرُ النِّعَمَ وَتُبَدِّلُ القِسَمَ، فَإِذَا بَرَّ النَّاسُ بَرَّهُمْ أَئِمَّتُهُمْ وَإِذا فَجَرَ النَّاسُ عَقُّوهُمْ قالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام :١٢٩][(١)].

وروى ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي بكرٍ رضي الله عنه: «سل يا أبا

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال: لما رأت الأنصار أن النبي ﷺ يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد، فدخل العباس رضي الله عنه فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم. فذكر خطبته بطولها هو حديث مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجد له أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعي. روى عن ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سعيد ليس بالقوى.

بكر» فقال: يا رسول الله دنا الأجل؟ فقال: «قَدْ دَنا الأَجَلُ وَتَدَلَّى» فقال: ليهنك يا نبي الله ما عند الله فليت شعري عن منقلبنا، فقال: «إِلَى اللَّهِ وَإِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى ثُمَّ إِلَى جَنَّةِ المَأْوَى وَالفِرْدَوْسِ الأَعْلَى وَالكَأْسِ الأَوْفى والرَّفِيقِ الأَعْلَى وَالحَظِّ وَالعَيْشِ المُهَنَّا» فقال: يا نبي الله من يلي غسلك؟ قال: «رِجَالٌ مِنْ أَهْل بَيْتِي الأَدْنَى فَالأَدْنَى» قال: ففيم نكفنك؟ فقال: «فِي ثِيَابِي هذِهِ وَفِي حُلَّةٍ يَمَانِيَّةٍ وَفِي بَيَاضِ مِصْرَ» فقال: كيف الصلاة عليك منا؟ وبكينا وبكى ثم قال: «مَهْلًا غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ وَجَزَاكُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ خَيْرًا، إذا غَسلْتُمُوني وَكَفنْتُمُوني فَضَعُوني عَلَى سَرِيري فِي بَيْتِي هذَا عَلَى شَفِيرى قَبْرِي، ثُمَّ اخرِجُوا عَنِّي سَاعَةً، فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُصَلي عَلَيَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣] ثُمَّ يَأْذَنُ لِلمَلائِكَةِ فِي الصَّلاةِ عَلَيَّ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُل عَلَيَّ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَيُصَلي عَلَيَّ جِبْرِيلُ ثُمَّ مِيكَائِيل ثُمَّ إِسْرَافِيلُ ثُمَّ مَلَكُ المَوْتِ مَعَ جِنُودٍ كَثِيرَةٍ، ثُمَّ المَلائِكَةُ بِأَجْمَعِها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَنْتُمْ فادْخُلُوا عَلَيَّ أَفْوَاجًا فَصَلُّوا عَلَيَّ أَفْوَاجًا زُمْرَة وَسَلِمُوا تَسْلِيمًا، وَلا تُؤْذُونِي بِتَزْكِيَةٍ ولا صَيْحَةٍ وَلا رَنَّةٍ وَلْيَبْدَأْ مِنْكُم الإِمامُ وأَهْلُ بَيْتِي الأَدْنَى فَالأَدْنَى، ثُمَّ زُمَرُ النِّسَاءِ ثُمَّ زُمَرُ الصِّبْيَانِ» قال فمن يدخلك القبر؟ قال: «زُمَرٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي الأَدْنَى فَالأَدْنَى مَعَ مَلائِكَةٍ كَثِيرةٍ لا تَرَوْنَهُمْ وَهُمْ يَرونَكُمْ قُومُوا فَأَدُّوا عَنِّي إِلَى مَنْ بَعْدِي» (١).

وقال عبد الله بن زمعة: جاء بلال في أوّل شهر ربيع الأوّل فأذن بالصلاة فقال رسول الله ﷺ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ» فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر، فقلت: قم يا عمر فصل بالناس، فقام عمر فلما كبَّر وكان رجلًا صيتًا سمع رسول الله ﷺ صوته بالتكبير فقال: «أَيْنَ أَبُو بَكْرٍ؟ يَأْبَى اللَّهُ ذلِكَ وَالمُسْلِمُونَ» قالها ثلاث مرات، «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» فقالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قام في مقامك غلبه البكاء فقال: «إِنَّكُنَّ صُوَيْحِباتُ يُوسُفَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» قال: فصلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر، فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك ويحك ماذا صنعت بي والله لولا أني ظننت أن رسول الله ﷺ أمرك ما فعلت. فيقول عبد الله: إني لم أر أحدًا أولى بذلك منك قالت عائشة رضي الله عنها: وما قلت ذاك ولا صرفته عن أبي بكر إلا رغبة به عن الدنيا، ولما في الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله، وخشيت أيضًا أن لا يكون الناس يحبون رجلًا صلى في مقام النبي ﷺ وهو حي أبدًا إلا أن يشاء الله، فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فإذن الأمر أمر الله والقضاء قضاؤه، وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين (٢).

---

(١) حديث ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال لأبي بكر «سل يا أبا بكر». رواه ابن سعد في الطبقات عن محمد عن عمر وهو الواقدي بإسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم.

(٢) حديث عبد الله بن زمعة: جاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي ﷺ «مروا أبا بكر فليصل

وقالت عائشة رضي الله عنها: فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة في أول النهار، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين، وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء، فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك، قال رسول الله ﷺ: «اخرجن عني هذا الملك يستأذن عليَّ» فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجري فجلس وتنحيت في جانب البيت فناجى الملك طويلًا، ثم إنه دعاني فأعاد رأسه في حجري وقال للنسوة: «ادخلن» فقلت: ما هذا بحس جبريل عليه السلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَجَلْ يا عَائِشَةُ هذا مَلَكُ المَوْتِ جَاءَنِي فَقَالَ: إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَنِي وأَمَرَنِي أَنْ لا أَدْخُلَ عَلَيْكَ إلاّ بِإِذْنٍ، فَإِنْ لَمْ تَأْذَنْ لِي أَرجعْ وَإِنْ أَذِنْتَ لِي دَخَلْتُ، وَأَمَرَنِي أَنْ لا أَقْبِضَكَ حَتَّى تَأْمُرَنِي فَمَاذَا أَمْرُكَ؟ فَقُلْتُ: اكْفُفْ عَنّي حَتَّى يَأْتِينِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فهذه ساعة جبريل» فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ما نحير إليه شيئًا وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظامًا لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا.

قالت: وجاء جبريل في ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال: إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: كيف تجدك وهو أعلم بالذي تجد منك، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفًا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنَّة في أمتك فقال: «أجدني وجعًا» فقال: أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك فقال: «يا جبريل إن ملك الموت استأذن عليَّ» وأخبره الخبر فقال جبريل: يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يعلمك الذي يريد بك؟ لا والله تعالى ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدًا، إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق، قال: «فَلا تَبْرَحْ إذَنْ حَتَّى يَجِيءَ» وأذن للنساء فقال: «يا فَاطِمَة ادْنِي» فاكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام، ثم قال: «أَدْنِي مِنِّي رَأْسَكِ» فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام، فكان الذي رأينا منها عجبًا، فسألتها بعد ذلك فقالت: أخبرني وقال: «إنِّي مَيِّتٌ اليَوْمَ» فبكيت ثم قال: «إنِّي دَعَوْتُ اللَّهُ أَنْ يُلْحِقَكِ بِي فِي أَوَّلِ أَهْلي وَأَنْ يَجْعَلَكِ مَعِي» فضحكت، وأدنت ابنيها منه فشمهما.

قالت: وجاء ملك الموت واستأذن فأذن له فقال الملك: ما تأمرنا يا محمد؟ قال: «ألْحِقْنِي

بالناس». أخرجه أبو داود بإسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله: «فقالت عائشة إن أبا بكر رجل رقيق... إلى آخره» ولم يقل: في أول ربيع الأول، وقال «مروا من يصلي بالناس» وقال: «يأبى الله ذلك والمؤمنون» مرتين وفي رواية له فقال: «لا! لا! ليصل للناس ابن أبي قحافة» يقول ذلك مغضبا، وأما ما في آخره من قول عائشة ففي الصحيحين من حديثها فقالت عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء! فقال: «إنكن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس»، [البخاري: ٧١٢، مسلم: ٤١٨].

بِرَبِّي الآنَ» فقال: بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد تردده عنك ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج قالت: وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدًا، طوي الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك، وما لي فيها حاجة إلا حضورك، ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمدًا بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله، لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا، قالت: فقمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين ثديي وأمسكت بصدره، وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحًا ما رأيته من إنسان قط، فجعلت أسلت ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له إذا أفاق بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتك من الرشح؟ فقال: «يا عَائِشَةُ إِنَّ نَفسَ المُؤْمِنِ تَخْرُجِ بِالرَّشْحِ وَنَفْسُ الكَافِرِ تَخْرُجُ مِنْ شِدْقَيْهِ كَنَفَسِ الحِمَارِ» فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا، فكان أوّل رجل جاءنا ولم يشهده أخي، بعثه إليَّ أبي، فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجيء أحد، وإنما صدهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل، وجعل إذا أغمي عليه قال: «بَل الرَّفِيقِ الأَعْلَى» كأن الخيرة تعاد عليه، فإذا أطاق الكلام قال: «الصَّلاةَ الصَّلاةَ إِنَّكُمْ لا تَزَالُونَ مُتَمَاسِكِينَ ما صَلَّيْتُمْ جَمِيعًا» الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو يقول: «الصَّلاةَ الصَّلاةَ» (١).

قالت عائشة رضي الله عنها: مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم

---

(١) موضوع: حديث عائشة: لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله ﷺ: «اخرجن عني! هذا الملك يستأذن علي». بطوله في مجيء ملك الموت ثم ذهابه ثم مجيء جبريل ثم مجيء ملك الموت ووفاته ﷺ، أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه: فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبي وصفيي محمد ﷺ في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه. وفيه دخول ملك الموت واستئذانه في قبضه فقال «يا ملك الموت أين خلفت حبيبي جبريل» قال خلفته في سماء الدنيا والملائكة يعزونه فيك، فما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعد عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له، وفيه ادن يا ملك الموت فانته إلى ما أمرت به... الحديث. وفيه: فدنا ملك الموت يعالج قبض روح النبي ﷺ وذكر كربه لذلك، إلى أن قال: فقبض رسول الله ﷺ وهو حديث طويل في ورقتين كبار وهو منكر، وفيه عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد: كان يكذب على وهب بن منبه، وأبوه إدريس أيضا متروك قاله الدارقطني، ورواه الطبراني أيضا من حديث الحسين بن علي: أن جبريل جاءه أولا فقال له عن ربه كيف تجدك؟ ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولا فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله: «امض لما أمرت به» وهو منكر أيضا فيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب الحديث ورواه أيضا من حديث ابن عباس في مجيء ملك الموت أولا واستئذانه وقوله. إن ربك يقرئك السلام فقال: «أين جبريل» فقال هو قريب مني الآن يأتي فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل... الحديث وفيه المختار بن نافع منكر الحديث، [انظر الضعيفة: ٥٣٨٤].

الاثنين [١]. قالت فاطمة رضي الله عنها: ما لقيت من يوم الاثنين، والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة وقالت أم كلثوم يوم أصيب علي كرّم الله وجهه بالكوفة مثلها: ما لقيت من يوم الاثنين، مات فيه رسول الله ﷺ، وفيه قتل علي، وفيه قتل أبي، فما لقيت من يوم الاثنين. وقالت عائشة رضي الله عنها: لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان، وبقي آخرون معهم عقولهم، وأقعد آخرون. فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته، وعلي فيمن أقعد، وعثمان فيمن أخرس. فخرج عمر على الناس وقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت، وليرجعنه الله عز وجل، وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله ﷺ الموت، إنما واعده الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم [٢].

وفي رواية أنه قال: يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله ﷺ فإنه لم يمت، والله لا أسمع أحدًا يذكر أن رسول الله ﷺ قد مات إلا علوته بسيفي هذا. وأما علي فإنه أقعد فلا يبرح البيت. وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدًا يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد، وإن كان الناس لم يرعووا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال: والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت، ولقد قال وهو بين أظهركم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله ﷺ فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله تعالى ليذيقك الموت مرتين، فقد والله توفي رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى الناس فقال: أيها الناس من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] الآية [٣] فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ.

---

(١) حديث عائشة: مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين. رواه ابن عبد البر.

(٢) حديث عائشة: لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس - حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الملائكة بثوبه. لم أجد له أصلا وهو منكر.

(٣) صحيح: حديث: بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج. أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة: أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال: بأبي وأمي أنت، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها. ولهما من حديث ابن عباس: أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس... الحديث. وفيه: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها

وفي رواية: أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرّة، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول: بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي طبت حيًا وميتًا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوّة، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء، ولولا أن موتك كان اختيارًا منك لجدنا لحزنك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء العيون، فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وادّكار محالفان لا يبرحان، اللهم فأبلغه عنا، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا[١].

وعن ابن عمر: أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عج أهل البيت عجيجًا سمعه أهل المصلى، كلما ذكر شيئًا ازدادوا، فما سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال: السلام عليكم يا أهل البيت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] الآية. إن في الله خلفًا من كل أحد ودركًا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة، فالله تعالى فارجوا وبه فثقوا. فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء، فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحدًا. ثم عادوا فبكوا فناداهم منادٍ آخر لا يعرفون صوته: يا أهل البيت اذكروا الله تعالى واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين، إنّ في الله عزاء من كل مصيبة وعوضًا من كل رغيبة، فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا. فقال أبو بكر: هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي ﷺ[٢].

أبو بكر. لفظ البخاري فيهما، [البخاري: ١٢٤٢].

(١) حديث: أن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يصلي على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وعيناه تهملان. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف: جاء أبو بكر ورسول الله ﷺ مسجى فكشف الثوب عن وجهه... الحديث إلى آخره.

(٢) حديث ابن عمر: أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عج أهل البيت عجيجا.لم أجد فيه ذكر «اليسع» وأما ذكر «الخضر» في التعزية فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال: إنما ذكره الأصحاب. قلت: بلى قد رواه الحاكم في المستدرك في حديث أنس ولم يصححه ولا يصح، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال: لما قبض رسول الله ﷺ اجتمع أصحابه حوله يبكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين في إزار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ بعضادتي باب البيت فبكى على رسول الله ﷺ ثم أقبل على أصحابه فقال: إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فإلى الله تعالى فأنيبوا ونظره إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبره الثواب. ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر: على الرجل، فنظروا يمينا وشمالا فلم يروا أحدًا، فقال أبو بكر: لعل هذا الخضر أخو نبينا عليه السلام جاء يعزينا. ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده ضعيف جدًا ورواه ابن أبي الدنيا أيضا من حديث علي بن أبي طالب: لما قبض

واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال: قام أبو بكر في الناس خطيبًا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبيﷺ فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فللَّه الحمد وحده، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه، وأشهد أن الكتاب كما شرع وأن الدين كما شرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال وأن الله هو الحق المبين، اللهم فصلِّ على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك، اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الخير وإمام الخير ورسول الرحمة. اللهم قرّب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابعثه مقامًا محمودًا يغبطه به الأولون والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد، أيها الناس إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يمت، وإن الله قد تقدّم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعًا، فإن الله عز وجل قد اختار لنبيهﷺ ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيهﷺ فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾[النساء:١٣٥] ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم.

وقال ابن عباس: لما فرغ أبو بكر من خطبته قال: يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي اللهﷺ ؟ أما ترى أن نبي اللهﷺ قال يوم كذا: كذا وكذا ويوم كذا: كذا وكذا، وقال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر:٣٠] فقال: والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا، أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حي لا يموت ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة:١٥٦] وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسولهﷺ . ثم جلس إلى أبي بكر.

وقالت عائشة رضي الله عنها: لما اجتمعوا لغسله قالوا: والله ما ندري كيف نغسل رسول اللهﷺ أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا أو نغسله في ثيابه؟ قالت: فأرسل الله عليهم

رسول اللهﷺ جاءآت نسمع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن في الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت، فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم. فقال علي: تدرون من هذا؟ هو الخضر. وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده علي والمعروف عن علي بن الحسين مرسلا غير ذكر علي كما رواه الشافعي في الأم وليس فيه ذكر «الخضر».

النوم حتى ما بقي منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائمًا ثم قال قائل، لا يدرى من هو، غسلوا رسول الله ﷺ في ثيابه، فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله ﷺ في قميصه، حتى إذا فرغوا من غسله كفن. وقال علي كرم الله وجهه: أردنا خلع قميصه فنودينا لا تخلعوا عن رسول الله ﷺ ثيابه. فأقررناه فغسلناه في قميصه كما نغسل موتانا مستلقيًا ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه، وإن معنا لحفيفًا في البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا ارفقوا برسول الله ﷺ فإنكم ستكفون. فهكذا كانت وفاة رسول الله ﷺ ولم يترك سبدًا ولا لبدًا إلا دفن معه. قال أبو جعفر: فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش، ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالًا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة [1] ففي وفاته عبرة تامة وللمسلمين به أسوة حسنة.

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدرُ

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذا ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩] انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما فإن الحي إلى الجديد أحوج من الميت. وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأراملِ

فقال أبو بكر: ذاك رسول الله ﷺ. ودخلوا عليه فقالوا: ألا ندعو لك طبيبًا ينظر إليك؟ قال: قد نظر إليَّ طبيبي وقال: إني فعال لما أريد. ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه يعوده فقال: يا أبا بكر أوصنا فقال: إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذنّ منها إلا بلاغك، واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تخفرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك.

ولما ثقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف، فاستخلف عمر رضي الله عنه، فقال الناس له: استخلفت علينا فظًّا غليظًا فماذا تقول لربك؟ فقال: أقول استخلفت على خلقك خير خلقك. ثم أرسل إلى عمر رضي الله عنه فجاء فقال: إني موصيك بوصية؛

---

(١) حديث أبي جعفر: فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفيه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة.

أما وضع المفرشة والقطيفة فالذي وضع القطيفة شقران مولى رسول الله ﷺ وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا، وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بنى في حياته فتقدم أيضا.

اعلم أن لله حقًّا في النهار لا يقبله في الليل، وأن لله حقًّا في الليل لا يقبله في النهار، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا بالحق أن يثقل. وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف، وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم، فيقول القائل: أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء؛ فإن اللّه ذكر أهل النار بأسوإ أعمالهم ورد عليهم صالح الذي عملوا، فيقول القائل: أنا أفضل من هؤلاء، وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبًا راهبًا ولا يلقي بيديه إلى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق. فإن حفظت وصيتي هذه فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بدّ لك منه، وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بدّ لك منه، ولست بمعجزه.

وقال سعيد بن المسيب: لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا: يا خليفة رسول الله ﷺ زوّدنا فإنا نراك لما بك. فقال أبو بكر: من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق المبين، قالوا: وما الأفق المبين؟ قال: قاع بين يدي العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار، يغشاه كل يوم مائة رحمة، فمن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا المكان: اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم، ثم جعلتهم فريقين فريقًا للنعيم وفريقًا للسعير فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير. اللهم إنك خلقت الخلق فرقًا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيًّا وسعيدًا وغويًّا ورشيدًا، فلا تشقني بمعاصيك، اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها مما علمت، فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك. اللهم إنّ أحدًا لا يشاء حتى تشاء، فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربني إليك. اللهم إنك قد قدّرت حركات العباد فلا يتحرّك شيء إلا بإذنك، فاجعل حركاتي في تقواك. اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملًا يعمل به، فاجعلني من خير القسمين. اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلًا، فاجعلني من سكان جنتك. اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم، فاشرح صدري للإيمان وزينه في قلبي، اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك. فأحيني بعد الموت حياة طيبة وقرّبني إليك زلفى. اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك، فأنت ثقتي ورجائي ولا حول ولا قوة إلا بالله» قال أبو بكر: هذا كله في كتاب الله عز وجل.

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه:

قال عمرو بن ميمون: «كنت قائمًا غداة أصيب عمر وما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس، وكان إذا مرَّ بين الصفين قام بينهما، فإذا رأى خللًا قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهم خللًا

تقدّم فكبر. قال: وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلني أو أكلني الكلب، حين طعنه أبو لؤلؤة، وطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمرّ على أحد يمينًا أو شمالًا إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلًا، فمات منهم تسعة وفي رواية سبعة. فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسًا، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه. وتناول عمر رضي الله تعالى عنه عبد الرحمن بن عوف فقدّمه، فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت، وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر؟ غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن العباس انظر من قتلني قال: فغاب ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة بن شعبة، فقال عمر رضي الله عنه: قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفًا. ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل مسلم، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقًا فقال ابن عباس: إن شئت فعلت؛ أي إن شئت قتلناهم، قال: بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال: وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ قال: فقائل يقول أخاف عليه، وقائل يقول: لا بأس. فأتي بنبيذ فشرب فخرج من جوفه، ثم أتي بلبن فشرب فخرج من جوفه، فعرفوا أنه ميت. قال: فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل؛ قد كان لك صحبة من رسول الله ﷺ وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، فقال: وددت أن ذلك كان كفافًا لا عليّ ولا لي. فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض، فقال: ردوا علي الغلام، فقال: يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك. ثم قال: يا عبد الله انظر ما عليّ من الدين؟ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه، فقال: إن وفى به مال آل عمر فأده من أموالهم؛ وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم، وأدِّ عني هذا المال وانطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل: عمر يقرأ عليك السلام، ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي ولأوثرنه اليوم على نفسي فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت. قال: الحمد لله ما كان شيء أهم إليّ من ذلك فإذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر فإن أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها، فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده

ساعة، واستأذن الرجال فولجت داخلًا فسمعنا بكاءها من داخل. فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين واستخلف، فقال: ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فسمى عليًا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمن وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء، كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمارة سعدًا فذاك وإلا فليستعن به أيكم أمر، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة. وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأوّلين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرًا الذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا فإنهم ردء الإسلام وجباة الأموال وغيظ العدوّ وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم، وأوصيه بالأعراب خيرًا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام وأن يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل لهم من وراءهم ولا يكلفهم إلا طاقتهم. قال: فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي، فسلم عبد الله بن عمر وقال: يستأذن عمر بن الخطاب، فقالت: أدخلوه، فأدخلوه في موضع هنالك مع صاحبيه... الحديث...

وعن النبي ﷺ قال: «قَالَ لِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ لَيَبْكِي الإِسْلامُ عَلَى مَوْتِ عُمَرَ» (١)، وعن ابن عباس قال: وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم، فلم يرعني إلا رجل قد أخذ بمنكبي فالتفت فإذا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال: ما خلفت أحدًا أحب إلي أن ألقي الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك وذلك أني كنت كثيرًا أسمع النبي ﷺ يقول: «ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ» (٢). فإني كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما.

وفاة عثمان رضي الله عنه:

الحديث في قتله مشهور. وقد قال عبد الله بن سلام: أتيت أخي عثمان لأسلم عليه وهو محصور، فدخلت عليه فقال: مرحبًا يا أخي رأيت رسول الله ﷺ الليلة في هذه الخوخة وهي خوخة في البيت فقال: «يا عُثْمَانُ حَصَرُوكَ؟» قلت: نعم قال: «عَطِشُوكَ» قلت: نعم، فأدلى إليَّ دلوًا فيه ماء فشربت حتى رويت، حتى إني لأجد برده بين ثديي وبين كتفي، وقال لي: «إِنْ شِئْتَ نُصِرْتَ عَلَيْهِمْ وَإِنْ شِئْتَ أَفْطَرْتَ عِنْدَنَا» فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم

(١) حديث «قال لي جبريل عليه السلام لبيك الإسلام على موت عمر». أخرجه أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

(٢) حديث ابن عباس قال: وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون، فذكر قول علي بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي ﷺ يقول: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر». متفق عليه.

رضي الله عنه.

وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان في الموت حين جرح: ماذا قال عثمان وهو يتشحط؟ قالوا: سمعناه يقول: اللهم اجمع أمة محمد ﷺ ثلاثًا قال: والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدًا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة.

وعن ثمامة بن حزن القشيري قال: شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال: ائتوني بصاحبيكم اللذين ألباكم عليَّ قال: فجيء بهما كأنما هما حملان أو حماران، فأشرف عليهما عثمان رضي الله عنه فقال: أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أنّ رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال: من يشتري رومة، يجعل دلوه مع دلاء المسلمين، بخير له منها في الجنة؟ فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا: نعم، قال: أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أنّ المسجد كان ضاق بأهله فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَشْتَرِي بُقْعَةَ آلِ فُلان فَيَزِيدُها فِي المَسْجِدِ بِخَيْرٍ مِنْها فِي الجَنَّةِ؟» فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلي فيها ركعتين؟ قالوا: اللهم نعم؛ قال: أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أنّ رسول الله ﷺ كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال: فركضه برجله وقال: «اسْكُنْ ثَبِيرُ فَمَا عَلَيْكَ إلاَّ نَبِيٌّ وَصَدِيقٌ وَشَهِيدانِ؟» قالوا: اللهم نعم، قال: الله أكبر شهدوا لي ورب الكعبة أني شهيد [(١)].

روي عن شيخ من ضبة أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] اللهم إني أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على ما ابتليتني.

وفاة علي كرم الله وجهه:

قال الأصبغ الحنظلي: لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي كرم الله وجهه، أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة فقام عليّ يمشي وهو يقول:

اشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيكا

ولا تجزع من الموت ... إذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شدّ عليه ابن ملجم فضربه. فخرجت أم كلثوم ابنة علي رضي الله

---

(١) حسن: حديث ثمامة بن حزن القشيري: شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه». أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي، [الترمذي: ٣٧٠٣، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي].

عنه فجعلت تقول: ما لي ولصلاة الغداة قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة؛ وقتل أبي صلاة الغداة.

وعن شيخ من قريش أنّ عليًا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال: فزت ورب الكعبة. وعن محمد بن علي أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله، حتى قبض.

ولما ثقل الحسن بن علي رضي الله عنهما دخل عليه الجسين رضي الله عنه فقال: يا أخي لأي شيء تجزع؟ تقدم على رسول الله ﷺ وعلى علي بن أبي طالب وهما أبواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أماك، وعلى حمزة وجعفر وهما عماك قال: يا أخي أقدم على أمر لم أقدم على مثله.

وعن محمد بن الحسن رضي الله عنهما قال: لما نزل القوم بالحسين رضي الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه قام في أصحابه خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد نزل من الأمر ما ترون وإنّ الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء، ألا حسبي من عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى، وإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا جرمًا.

الباب الخامس في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال: أقعدوني، فأقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال: تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان، وبكى حتى علا بكاؤه وقال: يا رب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بحلمك على من لا يرجو غيرك ولم يثق بأحد سواك.

وروي عن شيخ من قريش: أنه دخل مع جماعة عليه في مرضه فرأوا في جلده غضونًا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدّتنا وباستلذاذنا بعيشنا، فما لبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالًا بعد حال وعروة بعد عروة، فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلفتنا واستلأمت إلينا أفَ للدنيا من دار، ثم أفَ لها من دار.

ويروى أنّ آخر خطبة خطبها معاوية أن قال: أيها الناس إن من زرع قد استحصد وإني وليتكم ولن يليكم أحد من بعدي إلا وهو شر مني، كما كان من قبلي خيرًا مني ويا يزيد إذا وفى أجلي فولّ غسلي رجلًا لبيبًا، فإن اللبيب من الله بمكان، فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير، ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي ﷺ وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفي وفمي وأذني وعيني، واجعل الثوب على جلدي دون أكفاني، ويا يزيد احفظ وصية الله في الوالدين، فإذا أدرجتموني في جديدي ووضعتموني في حفرتي فخلوا

معاوية وأرحم الراحمين. وقال محمد بن عقبة: لما نزل بمعاوية الموت قال: يا ليتني كنت رجلًا من قريش بذي طوى وإني لم أل من هذا الأمر شيئًا.

ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوي ثوبًا بيده ثم يضرب به المغسلة، فقال عبد الملك: ليتني كنت غسالًا آكل من كسب يدي يومًا بيوم ولم أل من أمر الدنيا شيئًا، فبلغ ذلك أبا حازم فقال: الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمنّ ما هم فيه. وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام :٩٤] الآية. ومات.

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم أخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار. فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له، فسمعته يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص :٨٣] ثم هدأ فجعلت لا أسمع حركة ولا كلامًا فقلت لوصيف له: انظر أنائم هو؟ فلما دخل صاح، فوثبت فإذا هو ميت. وقيل له لما حضره الموت: اعهد يا أمير المؤمنين قال: أحذركم مثل مصرعي هذا فإنه لا بدّ لكم منه.

وروي أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعي له طبيب فلما نظر إليه قال: أرى الرجل قد سقي السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال: ولا تأمن الموت أيضًا على من لم يسق السم قال الطبيب: هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال: فتعالج يا أمير المؤمنين فإني أخاف أن تذهب نفسك، قال: ربي خير مذهوب إليه، والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني ما رفعت يدي إلى أذني فتناولته. اللهم خر لعمر في لقائك؛ فلم يلبث إلا أيامًا حتى مات وقيل: لما حضرته الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننًا وأظهر بك عدلًا فبكى ثم قال: أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق، فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله إلا أن يلقنها الله حجتها؛ فكيف بكثير مما ضيعنا؟ وفاضت عيناه، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى مات: ولما قرب وقت موته قال: أجلسوني فأجلسوه فقال: أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحدّ النظر فقيل له في ذلك فقال: إني لأرى خضرة؛ ما هم بإنس ولا جن ثم قبض رحمه الله.

وحكي عن هارون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة :٢٨-٢٩].

وفرش المأمون رمادًا واضطجع عليه وكان يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال

ملكه. وكان المعتصم يقول عند موته: لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت.

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له: لا بأس عليك يا أمير المؤمنين؟

فقال: ليس إلا هذا؛ لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة.

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة، وقد نظر إلى صناديق لبنيه: من يأخذها بما فيها ليته كان بعرًا.

وقال الحجاج عند موته: اللهم اغفر لي فإن الناس يقولون إنك لا تغفر لي. فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها، ولما حكي ذلك للحسن قال: أقالها؟ قيل: نعم. قال: عسى.

بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين:

لما حضرت معاذًا رضي الله عنه الوفاة قال: اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر. ولما اشتد به النزع ونزع نزعًا لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال: رب ما أخنقني خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك.

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعًا على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب[1]. فلما مات سلمان نظر في جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهمًا.

ولما حضرت بلالًا الوفاة قالت امرأته: واحزناه فقال: بل واطرباه غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه.

وقيل: فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أنتظر من الله رسولًا يبشرني بالجنة أو بالنار.

ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتيته؛ ولكن أخاف أني أتيت شيئًا حسبته هينًا وهو عند الله عظيم.

ولما حضرت عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعًا من

---

(١) حديث: لما حضرت سلمان الوفاة بكى. وفيه عهد إلينا رسول الله ﷺ: «أن يكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب». أخرجه أحمد والحاكم وصححه، وقد تقدم.

الموت ولا حرصًا على الدنيا ولكن أبكي على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء.

ولما حضرت فضيلًا الوفاة غشي عليه، ثم فتح عينيه وقال: وابعد سفراه واقلة زاداه.

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه: اجعل رأسي على التراب، فبكى نصر فقال له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيرًا غريبًا قال: اسكت فإني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء، ثم قال له: لقنّي ولا تعد علي ما لم أتكلم بكلام ثان.

وقال عطاء بن يسار: تبدى إبليس لرجل عند الموت فقال له: نجوت فقال: ما آمنك بعد. وبكى بعضهم عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ قال: آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة :٢٧].

ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال: إن أمرًا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره، وإن أمرًا هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله. وقال الجريري: كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان يوم الجمعة ويوم النيروز وهو يقرأ القرآن فختم، فقلت له: في هذه الحالة يا أبا القاسم؟ فقال: ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي؟

وقال رويم: حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول:

حنينُ قلوب العارفين إلى الذكر ... وتذكارهم وقت المناجاة للسرّ
أديرت كؤوسُ المنايا عليهم ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي السكرِ
هـمومهـمُ جوّالـة بـمعـسكـرٍ ... به أهل ودّ الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه ... وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري
فما عرّسوا إلا بقرب حبيبهم ... وما عرجوا من مسّ بؤس ولا ضرّ

وقيل للجنيد: إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت، فقال: لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقًا. وقيل لذي النون عند موته: ما تشتهي؟ قال: أن أعرفه قبل موتي بلحظة.

وقيل لبعضهم وهو في النزع: قل: الله فقال: إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله. وقال بعضهم: كنت عند ممشاد الدينوري فقدم فقير وقال: السلام عليكم؛ هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه؟ قال: فأشاروا إليه بمكان وكان ثم عين ماء فجدد الفقير الوضوء وركع ما شاء الله، ومضى إلى ذلك المكان ومدّ رجليه ومات. وكان أبو عباس الدينوري يتكلم في مجلسه، فصاحت امرأة تواجدًا فقال لها: موتي، فقامت المرأة، فلما بلغت الدار التفتت إليه وقالت: قد مت، ووقعت ميتة. ويحكى عن فاطمة أخت أبي علي الروذباري قالت: لما قرب أجل أبي علي الروذباري وكان رأسه في حجري فتح عينيه وقال: هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول: يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى

وإن لم تردها ثم أنشأ يقول:

وحقك لا نظرت إلى سواكا ... بعين مودة حتى أراكا
أراك معذبي بفتور لحظ ... وبالخد المورد من حياكا

وقيل للجنيد: قل لا إله إلا الله، فقال: ما نسيته فأذكره. وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ما الذي رأيت منه؟ فقال: قال: عليّ درهم مظلمة، وتصدقت عن صاحبه بألوف فما على قلبي شغل أعظم منه ثم قال: وضئني للصلاة؛ ففعلت فنسيت تخليل لحيته وقد أمسك على لسانه فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال: ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة؟

وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر وكان يشق عليه كأنك تحب الحياة؟ فقال: القدوم على الله شديد. وقيل لصالح بن مسمار: ألا توصي بابنك وعيالك؟ فقال: إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيره.

ولما احتضر أبو سليمان الداراني أتاه أصحابه فقالوا: أبشر فإنك تقدم على رب غفور رحيم، فقال لهم: ألا تقولون احذر فإنك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير؟

ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له: أوصنا. فقال: احفظوا مراد الحق فيكم.

واحتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: عليك أبكي فقال: إن كنت باكية فابكي على نفسك فلقد بكيت اليوم أربعين سنة. وقال الجنيد: دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت: كيف تجدك؟ فأنشأ يقول:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي ... والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة لأروّحه فقال: كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق؟ ثم أنشأ يقول:

القلبُ محترقٌ والدمعُ مستبقُ ... والكرب مجتمع والصبر مفترقُ
كيف القرار على من لا قرار له ... مما جناه الهوى والشوق والقلقُ
يا رب إن يك شيء فيه لي فرج ... فامنن عليّ به ما دام لي رَمَقُ

وحكي أنّ قومًا من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له: قل لا إله إلا الله، فأنشأ يقول:

إن بيتًا أنت ساكنه ... غير محتاج إلى السرجِ
وجهك المأمول حجتنا ... يوم يأتي الناس بالحججِ
لا أتاح الله لي فرجًا ... يوم أدعو منك بالفرجِ

وحكي أنّ أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزعه فسلم عليه فلم يجبه، ثم أجاب بعد ساعة وقال: اعذرني فإني كنت في وردي ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبّر ومات. وقيل للكتاني لما حضرته الوفاة: ما كان عملك؟ فقال: لو لم يقرب أجلي ما أخبرتكم به

وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مرّ فيه غير الله حجبته عنه. وحكي عن المعتمر قال: كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق، فقلت: اللهم هوّن عليه سكرات الموت فإنه كان وكان فذكرت محاسنه فأفاق فقال: من المتكلم؟ فقلت: أنا فقال: إنّ ملك الموت عليه السلام يقول لي: إني بكل سخي رفيق، ثم طفئى.

ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلقًا فقال: يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع؟ فقال: يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وإني لا أعلم أني صدقت الله في شيء من عملي فقال حذيفة: واعجباه لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم صدق الله في شيء من عمله. وعن المغازلي قال: دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة وهو عليل وهو يقول: يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بي. ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينوري في وقت وفاته فقال له: فعل الله تعالى وصنع من باب الدعاء فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض علي الجنة بما فيها فما أعرتها طرفي. وقيل لرويم عند الموت: قل لا إله إلا الله، فقال: لا أحسن غيره. ولما حضرت الثوري الوفاة قيل له: قل لا إله إلا الله، فقال: أليس ثم أمر؟ ودخل المزني على الشافعي رحمة الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلًا وللإخوان مفارقًا ولسوء عملي ملاقيًا ولكأس المنية شاربًا وعلى الله تعالى واردًا، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها؟ ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سُلّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرّما
ولولاك لم يغو بإبليس عابد ... فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضرت أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسألة فدمعت عيناه وقال: يا بني باب كنت أدقه خمسًا وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لي، لا أدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة؟ فآن لي أوان الجواب.

فهذه أقاويلهم، وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب، فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله، والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم.

الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر، وحكم زيارة القبور

اعلم أنّ الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة، لأنهم يظنون أنهم أبدًا إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم لا محالة على

الجنائز يحملون، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب، لا يقدرون، ولا يتفكرون أنّ المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون، فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدّر نفسه محمولًا عليها، فإنه محمول عليها، على القرب وكأن قد، ولعله في غد أو بعد غد.

ويروى عن أبي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال: امضوا فإنا على الأثر. وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإنا رائحون. موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأوّل والآخر لا عقل له. وقال أسيد بن حضير ما شهدت جنازة فحدّثتني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به وما هو صائر إليه. ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول: والله لا تقر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه، ولا أعلم ما دمت حيًّا.

وقال الأعمش: كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي؟ لحزن الجميع. وقال ثابت البناني: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعًا باكيًا.

فهكذا كان خوفهم من الموت. والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون، ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه، ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها. ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأهوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا. فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت. نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال: لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرًا لكم، إنه نجا من أهوال ثلاثة: وجه ملك الموت وقد رأى، ومرارة الموت وقد ذاق، وخوف الخاتمة وقد أمن. وقال أبو عمرو بن العلاء: جلست إلى جرير وهو يملي على كاتبه شعرًا فأطلعت جنازة فأمسك وقال: شيبتني والله هذه الجنائز. وأنشأ يقول:

تروّعنا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ثلة لمغار ذئب فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز:

التفكر والتنبه والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع، كما ذكرنا آدابه وسننه في فن الفقه، ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقًا، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح، فإن الخاتمة مخطرة لا تدري حقيقتها. ولذلك روي عن عمر بن ذرّ أنه مات واحد من جيرانه، وكان مسرفًا على نفسه، فتجافى كثير من الناس عن جنازته، فحضرها هو وصلى عليها، فلما دلي في قبره وقف على قبره وقال: يرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك

بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود، وإن قالوا مذنب وذو خطايا؟ فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا؟.

ويحكى أنّ رجلًا من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه، فاستأجرت حمالين وحملتها إلى المصلى فما صلى عليه أحد، فحملتها إلى الصحراء للدفن؛ فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار، فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلي عليها، فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلي على فلان، فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال: قيل لي في المنام: انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلِّ عليه فإنه مغفور له، فزاد تعجب الناس فاستدعى امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته؟ قالت: كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولًا بشرب الخمر فقال: انظري هل تعرفين منه شيئًا من أعمال الخير؟ قالت: نعم؛ ثلاثة أشياء: كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلي الصبح في جماعة ثم يعود إلى الماخور ويشتغل بالفسق.

والثاني: أنه كان أبدًا لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده، وكان شديد التفقد لهم.

والثالث: أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول: يا رب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث؟ يعني نفسه. فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره. وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره:

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ... وإلا فإني لا إخالك ناجيا

بيان حال القبر وأنه يلقى عنده

قال الضحاك: قال رجل: يا رسول الله من أزهد الناس؟ قال: «مَنْ لَمْ يَنْسَ القَبْرَ وَالبِلَى وَتَرَكَ فَضْلَ زِينَةِ الدُّنْيَا وَآثَرَ ما يَبْقَى عَلَى مـا يَفْنَى ولَمْ يَعُدَّ غَدًا مِنْ أَيَّامِهِ وَعَدَّ نَفْسَهُ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ»(١)، وقيل لعلي كرّم الله وجهه: ما شأنك جاورت المقبرة؟ قال: إني أجدهم خير جيران أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة. وقال رسول الله ﷺ: «ما رَأَيْتُ مَنْظَرًا إلاّ وَالقَبْرُ أَفْظَع مِنْهُ»(٢). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه. فبكى وبكيت وبكوا فقال: «ما يُبْكِيكُمْ؟» قلنا: بكينا لبكائك قال: «هذا قَبْرُ أُمِّي آمِنَةَ بِنْت وَهَبٍ اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِهَا

---

(١) حديث الضحاك: قال رجل يا رسول الله من أزهد الناس؟ قال: «من لم ينس القبور والبِلَى». تقدم.

(٢) حديث «ما رأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه». تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة.

فَأَذِنَ لِي، فَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَها فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَدْرَكَنِي ما يُدْرِكُ الوَلَد مِنَ الرِّقَّة» (١)، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فسئل عن ذلك وقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي إذا وقفت على قبر؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ القَبْرَ أَوَّل مَنَازِلِ الآخِرَةِ فإِنْ نَجَا مِنْهُ صَاحِبهُ فَما بَعْدَهُ أَيْسَر مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ» (٢)، وقيل إنّ عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين، فقيل له هذا شيء لم تكن تصنعه؟ فقال: ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرّب إلى الله بهما. وقال مجاهد: أوّل ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول: أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة، هذا ما أعددت لك فما أعددت لي؟ وقال أبو ذرّ: ألا أخبركم بيوم فقري، يوم أوضع في قبري. وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور، فقيل له في ذلك فقال: أجلس إلى قوم يذكروني معادي وإذا قمتُ لم يغتابوني. وكان جعفر بن محمد يأتي القبور ليلًا ويقول: يا أهل القبور مالي إذا دعوتكم لا تجيبوني ثم يقول: حيل والله بينهم وبين جوابي وكأني بي أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر. وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه: يا فلان لقد أرقت الليلة أتفكر في القبر وساكنه، وإنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به ولرأيت بيتًا تجول فيه الهوام ويجري فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب، قال: ثم شهق شهقة خرّ مغشيًا عليه. وكان يزيد الرقاشي يقول: أيها المقبور في حفرته والمتخلي في القبر بوحدته المستأنس في بطن الأرض بأعماله. ليت شعري بأي أعمالك استبشرت وبأي إخوانك اغتبطت؟ ثم يبكي حتى يبل عمامته ثم يقول: استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يخور الثور.

وقال حاتم الأصم: من مرّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدعُ لهم فقد خان نفسه وخانهم. وكان بكر العابد يقول: يا أماه ليتك كنت بي عقيمًا إن لابنك في القبر حبسًا طويلًا ومن بعد ذلك منه رحيلًا. وقال يحيى بن معاذ: يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه؟ إن أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها، وإن أجبته من قبرك منعتها. وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول: ما أحسن ظواهرك إنما الدواهي في بواطنك

---

(١) حديث عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم. وفيه «هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي...» وتقدم في آداب الصحبة أيضا، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب، وآخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه أيوب بن هانئ ضعفه بن معين وقال أبو حاتم صالح.

(٢) حديث عثمان: كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته. وفيه: إن القبر أول منازل الآخرة. أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصحبة.

وكان عطاء السلمي إذا جنّ عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول: يا أهل القبور متم فواموتاه وعانيتم أعمالكم فواعملاه ثم يقول غدًا عطاء في القبور، غدًا عطاء في القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح. وقال سفيان: من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار. وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره قبرًا، فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] يرددها، ثم يرد على نفسه: يا ربيع قد رجعتك فاعمل. وقال أحمد بن حرب تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ويسوي فراشه للنوم، فتقول يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بيني وبينك شيء وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل عليّ فقال يا ميمون هذه قبور آبائي بني أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلى وأصابت الهوام مقيلًا في أبدانهم؟ ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحدًا أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب الله. وقال ثابت البناني: دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها. ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطت وجهها وقالت:

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل: إنها ضربت على قبره فسطاطًا واعتكفت عليه سنة. فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة، فسمعوا صوتًا من جانب البقيع: هل وجدوا ما فقدوا؟ فسمعوا من الجانب الآخر: بل يئسوا فانقلبوا.

وقال أبو موسى التميمي: توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة، وفيهم الحسن، فقال له الحسن: يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة. فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال:

أخاف وراء القبر إن لم تعافني ... أشدّ من القبر التهابًا وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائدٌ ... عنيفٌ وسوّاق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى ... إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور:

قِفْ بالقبور وقلْ على ساحاتها ... مَنْ منكم المغمور في ظُلُمَاتِها
ومن المكرّم منكم في قعرها ... قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذي العيون فواحد ... لا يستبين الفضل في درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسنٍ ... تصف الحقائق بعد من حالاتها

أما المطيع فنازلٌ في روضة يفضي إلى ما شاء من دوحاتها
والمجرمُ الطاغي بها متقلبٌ في حفرة يأوي إلى حيّاتها
وعقارب تسعى إليه فروحه في شدّة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول:

عدمت الحياة ولا نلتها إذا كنت في القبر قد ألحدوكا
فكيف أذوق لطعم الكرى وأنت بيمناك قد وسدوكا

ثم قالت: يا ابناه بأي خديك بدأ الدود؟ فصعق داود مكانه وخرّ مغشيًا عليه. وقال مالك ابن دينار: مررت بالمقبرة فأنشأت أقول:

أتيت القبورَ فناديتها فأين المعظم والمحتقرْ
وأين المدل بسلطانه وأين المزكى إذا ما افتخرْ

قال: فنوديت من بينها، أسمع صوتًا ولا أرى شخصًا وهو يقول:

تفانوا جميعًا فما مخبر وماتوا جميعًا ومات الخبرْ
تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصورْ
فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فيما ترى معتبرْ
قال: فرجعت وأنا باك. أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبًا على قبر:

تناجيك أجداثٌ وهنَّ صموتُ وسكّانها تحت التراب خفوتُ
أيا جامع الدنيا لغير بلاغه لمن تجمع الدنيا وَأنْتَ تموتُ

ووجد على قبر آخر مكتوبًا:

أيا غانم أما ذراك فواسع وقبرك معمور الجوانب محكمُ
وما ينفع المقبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه يتهدمُ

وقال ابن السماك: مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب:

يمرّ أقاربي جنبات قبري كأن أقاربي لم يعرفوني
ذوو الميراث يقتسمون مالي وما يألون أن جحدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فيالله أسرع ما نسوني

ووجد على قبر آخر مكتوبًا:

إن الحبيب من الأحباب مختلسُ لا يمنع الموت بواب ولا حَرَسُ
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها يا من يعدّ عليه اللفظ والنَّفَسُ
أصبحت يا غافلًا في النقص منغمسًا وأنت دهرك في اللذات منغمسُ
لا يرحم الموت ذا جهل لغرّته ولا الذي كان منه العلم يقتبسُ

كم أخرس الموت في قبر وقفت به ... عن الجواب لسانًا ما به خَرَسُ
قد كان قصرك معمورًا له شرف ... فقبرك اليوم في الأجداث مُنْدرِسُ

ووجد على قبر آخر مكتوبًا:

وقفت على الأحبّة حين صفت ... قبورهم كأفراس الرهانِ
فلما أن بكيت وفاض دمعي ... رأت عيناي بينهم مكاني

ووجد على قبر طبيب مكتوبًا:

قد قلت لما قال لي قائل ... صار لقمان إلى رمسهِ
فأين ما يوصف من طبِّه ... وحذقه في الماء مع جسّهِ
هيهات لا يدفع عن غيره ... من كان لا يدفع عن نفسهِ

ووجد على قبر آخر مكتوبًا:

يا أيها الناسُ كان لي أمل ... قصر بي عن بلوغه الأجلُ
فليتق الله ربه رجل ... أمكنه في حياته العملُ
ما أنا وحدي نقلت حيث ترى ... كل إلى مثله سينتقلُ

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت. والبصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم، وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها، لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور، فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب، وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب، فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة، ولعلك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيع لها، فوطِّن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار إذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار. فقد قال بعض الصالحين: رأيت أخًا لي في الله فيما يرى النائم، فقلت: يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين، قال: لأن أقدر على أن أقولها يعني الحمد لله رب العالمين أحب إلي من الدنيا وما فيها، ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنونني فإن فلانًا قد قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إليّ من الدنيا وما فيها.

بيان أقاويلهم عند موت الولد:

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله في تقدمه عليه في الموت منزلة ما لو كانا في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه، فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب، وليس بينهما إلا تقدّم وتأخر وهكذا الموت فإنّ معناه السبق إلى الوطن

إلى أن يلحق المتأخر، وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه، لا سيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزي به كل مصاب، قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ أقدِّمَ سِقْطًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُخَلِّفَ مِائَةَ فَارِسٍ كُلُّهُمْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (١)، وإنما ذكر السقط تنبيهًا بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب. وقال زيد بن أسلم: توفي ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزنًا شديدًا فقيل له: ما كان عدله عندك؟ قال: ملء الأرض ذهبًا قيل له: فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك، وقال رسول الله ﷺ: «لا يَمُوت لِأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ثَلاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ فَيَحْتَسِبَهُمْ إلاّ كَانُوا لَهُ جُنَّةً مِنَ النَّارِ» فقالت امرأة عند رسول الله ﷺ: أو اثنان؟ قال: «أو اثنان» (٢)، وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة.

وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال: اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقق رجائي وآمن خوفي. ووقف أبو سنان على قبر ولده فقال: اللهم إني قد غفرت له ما وجب لي عليه فاغفر له ما وجب لك عليه فإنك أجود وأكرم. ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال: اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه من بري فهب له ما قصر فيه من طاعتك. وما مات ذرّ بن عمر بن ذرّ قام أبوه عمر بن ذرّ بعد ما وضعه في لحده، فقال: يا ذرّ لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك. فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك؟ ثم قال: اللهم إن هذا ذرّ متعتني به ما متعتني ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه، اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي، اللهم ما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تعذبه. فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه: ما علينا بعدك من خصاصة يا ذرّ وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة، فلقد مضينا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك. ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال: ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك إلا من قلة الحزن فقالت: يا عبد الله إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد، قال: فكيف؟ قالت: إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الأضحى وكان لي صبيان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر: أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة؟ قال: نعم، فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا متشحطًا في دمه، فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فرهقه ذئب فأكله، فخرج أبوه يطلبه فمات عطشًا من شدّة الحر، قالت: فأرادني الدهر كما ترى. فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدّة الجزع، فما من مصيبة إلا ويتصوّر ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر.

---

(١) **ضعيف**: حديث «لأن أقدم سقطا أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله». لم أجد فيه ذكر «مائة فارس» وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة «لسقط أقدمه بين يدي أحب إلى من فارس أخلفه خلفي»، [**ابن ماجه**: ١٦٠٧، **وانظر ضعيف الجامع**: ٤٣٠٧].

(٢) حديث «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم». تقدم في النكاح.

بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به:

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد [١].

روي عن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّها تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ غَيْرَ أَنَّ لا تَقُولُوا هُجْرًا» [٢]، وزار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكيًا أكثر من يومئذ [٣]، وفي هذا اليوم قال: «أُذِنَ لِي فِي الزِّيارَةِ دُونَ الاسْتِغْفَارِ» [٤]. كما أوردنا من قبل. وقال ابن أبي مليكة: أقبلت عائشة رضي الله عنها يومًا من المقابر فقلت: يا أم المؤمنين من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن، فقلت: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عنها؟ قالت: نعم، ثم أمر بها [٥]، ولا ينبغي أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر، فإنهن يكثرن الهجر على رؤوس المقابر فلا يفي خير زيارتهن بشرها، ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم، والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها. نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر.

وقال أبو ذرّ قال رسول الله ﷺ: «زُرِ القُبُورِ تَذْكُرْ بِها الآخِرَةَ، وَاغْسِلِ المَوْتَى فَإِنَّ مُعَالَجَةَ جَسَدٍ خَاوٍ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ، وَصَلِّ عَلَى الجَنَائِزِ لَعَلَّ ذلِكَ أَنْ يُحْزِنَكَ فَإِنَّ الحَزِينَ فِي ظِلِّ اللَّهِ» [٦].

وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله ﷺ: «زُورُوا مَوْتَاكُمْ وَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهِمْ

---

(١) حديث: نهيه عن زيارة القبور ثم إذنه في ذلك. أخرجه مسلم من حديث بريدة وقد تقدم.

(٢) حديث علي «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا». رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى «غير أن لا تقولوا هجرا» وفيه علي بن زيد بن جدعان عن ربيعة بن النابغة قال البخاري: لم يصح، وربيعة ذكره ابن حبان في الثقات.

(٣) حديث: زار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخنس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكبا وفيه أنه لم يأذن له في الاستغفار لها.

(٤) حديث «وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار». تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة "استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي".

(٥) صحيح: حديث ابن أبي مليكة: أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت: يا أم المؤمنين من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن قلت: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عنها؟ قالت: نعم ثم أمر بها. أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد، [انظر الإرواء: ٧٧٥].

(٦) ضعيف: حديث أبي ذر «زر القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى، فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة». أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد، [انظر الضعيفة: ٣٦٦٣].

عِبْرَةً»[١] وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه. وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام، فتصلي وتبكي عنده. وقال النبي ﷺ: «مَنْ زَارَ قَبْرَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدِهِما فِي كُلِّ جُمُعَةٍ غُفِرَ لَهُ وَكُتِبَ بَرًّا»[٢]. وعن ابن سيرين قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُوتُ وَالداهُ وَهُوَ عاقٌّ لَهُما فَيَدْعُو اللَّهَ لَهُما مِنْ بَعْدِهِما فَيَكْتُبُهُ اللَّهُ مِنَ البَارِّينَ»[٣]، وقال النبي ﷺ: «مَنْ زَارَ قَبْرِي فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي»[٤]، وقال ﷺ: «مَنْ زَارَنِي بِالمَدِينَةِ مُحْتَسِبًا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا وَشَهِيدًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[٥]، وقال كعب الأحبار: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفًا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك، حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفًا من الملائكة يوقرونه.

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلًا بوجهه الميت، وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله، فإن ذلك من عادة النصارى. قال نافع: كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي، السلام على أبي بكر، السلام على أبي، وينصرف. وعن أبي أمامة قال: رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي ﷺ فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي ﷺ ثم انصرف. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ رَجُلٍ يَزُورُ قَبْرَ أَخِيهِ وَيَجْلِسُ عِنْدَهُ إلاّ اسْتَأْنَسَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُومَ»[٦] وقال سليمان بن سحيم: رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم؟ قال: نعم وأردُّ عليهم. وقال أبو هريرة: إذا مرَّ الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه، وإذا مرَّ بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام.

---

(١) ضعيف: حديث ابن أبي مليكة «زروا موتاكم وسلموا عليهم فإن لكم فيهم عبرة». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلا وإسناده حسن، [انظر ضعيف الجامع: ٣٥٣٤، من حديث الحسن بنحوه].

(٢) موضوع: حديث «من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا». أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك، [انظر الضعيفة: ٤٩].

(٣) ضعيف: حديث ابن سيرين أن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عقبة أبي العيزار عن محمد بن جحادة عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف، [انظر الضعيفة: ٩١٥].

(٤) حديث «من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي». تقدم في أسرار الحج.

(٥) حديث «من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة». تقدم فيه.

(٦) حديث عائشة «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم». أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن سمعان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الأشبيلي.

وقال رجل من آل عاصم الجحدري: رأيت عاصمًا في منامي بعد موته بسنتين، فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى، فقلت: أين أنت؟ قال: أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المزني فنتلاقى أخباركم. قلت أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قلت: وكيف ذاك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمه. وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة، فقيل له: لو أخرت إلى يوم الاثنين؟ قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوّارهم يوم الجمعة ويومًا قبله ويومًا بعده. وقال الضحاك: من زار قبرًا قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته، قيل: وكيف ذاك؟ قال: لمكان يوم الجمعة. وقال بشر بن منصور: لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى وقف على باب المقابر، فقال: آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات. قال الرجل: فأمسيت ذات ليلة فانصرفت إلى أهلي ولم آت إلى المقابر فأدعو كما كنت أدعو، فبينما أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاؤوني، فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر. قلت: ما جاء بكم؟ قالوا: إنك قد عوّدتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك، قلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنت تدعو لنا بها، قلت: فإني أعود بذلك، فما تركتها بعد ذلك. وقال بشار بن غالب النجراني: رأيت رابعة العدوية العابدة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على طبق من نور مخمرة بمناديل الحرير. قلت: وكيف ذاك؟ قالت: وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق من نور وخمر بمناديل الحرير ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان إليك. قال رسول الله ﷺ «ما الميتُ في قَبْرِهِ إلاّ كَالغَرِيقِ المُغَوِّثِ يَنْتَظِرُ دَعْوَةً تَلْحَقُهُ مِنْ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ صَدِيقٍ لَهُ، فإذا لَحِقَتْهُ كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيها، وَإِنَّ هَدَايا الأَحْيَاءِ لِلأَمْوَاتِ الدُّعَاءُ وَالاسْتِغْفَارُ» (١).

وقال بعضهم: مات أخ لي فرأيته في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت في قبرك؟ قال: أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعيًا دعا لي لرأيت أنه سيضربني به.

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له.

---

(١) حديث «ما الميت في قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل.

وقال سعيد بن عبد الله الأزدي: شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع، فقال: يا سعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله ﷺ فقال: «إذا مات أحدكم فسوّيتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره، ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوي قاعدًا ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأنك رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا وبالقرآن إمامًا، فإن منكرًا ونكيرًا يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته، ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما»، فقال رجل يا رسول الله فإن لم يعرف اسم أمه؟ قال: «فَلْيَنْسُبْهُ إِلَى حَوَّاءَ»[1].

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور. روي عن علي بن موسى الحداد قال: كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا، فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد: يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد: يا أبا عبد الله ما تقول في مبشر بن إسماعيل الحلبي؟ قال ثقة: قال: هل كتبت عنه شيئًا؟ قال: نعم، قال: أخبرني مبشر بن إسماعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها، وقال سمعت ابن عمر يوصي بذلك، فقال له أحمد: فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ، وقال محمد بن أحمد المروزي: سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقرؤوا بفاتحة الكتاب والمعوّذتين وقل هو الله أحد، واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم. وقال أبو قلابة: أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل، ثم وضعت رأسي على قبر فنمت ثم تنبهت فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول لقد آذيتني منذ الليلة، ثم قال إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خيرًا أقرئهم السلام فإنه قد يدخل علينا نور أمثال الجبال.

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها، وللمزور الانتفاع بدعائه. فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به.

وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصوّر في قلبه الميت كيف تفرّقت أجزاءه وكيف يبعث من قبره؟ وأنه على القرب سيلحق به كما روي عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال: كانت عجوز

---

(١) منكر: حديث سعيد بن عبد الله الأزدي قال: شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع فقال: يا سعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله ﷺ فقال: «إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة». في تلقين الميت في قبره أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف، [انظر الضعيفة: ٥٩٩].

في عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور، فبلغني أنها عوتبت في كثرة إتيانها المقابر فقالت: إنّ القلب القاسي إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى، وإني لآتي القبور فكأني أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأني أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجفان الدسمة، فيا لها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس وأشدّ تلفها للأبدان، بل ينبغي أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز؛ حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهاد والعبادة فقال له: يا فلان لو رأيتني بعد ثلاث وقد أدخلت قبري وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان. وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم، ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن.

ويستحب الثناء على الميت وألا يذكر إلا بالجميل. قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ «إذا ماتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ وَلا تَقَعُوا فِيهِ» (١)، وقال ﷺ «لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوا إِلَى ما قَدَّمُوا» (٢)، وقال ﷺ «لا تَذْكُرُوا مَوْتَاكُمْ إِلاّ بِخَيْرٍ فَإِنَّهُمْ إِنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ تَأْثَمُوا وَإِنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَحَسْبُهُمْ ما هُمْ فِيهِ» (٣)، وقال أنس بن مالك: مرّت جنازة على رسول الله ﷺفأثنوا عليها شرًّا فقال عليه السلام: «وَجَبَتْ» ومروا بأخرى فأثنوا عليها خيرًا فقال رسول الله ﷺ «وَجَبَتْ» فسأله عمر عن ذلك فقال: «إِنَّ هذا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّة، وَهذا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّار وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّه فِي الأَرْضِ» (٤). وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ «إِنَّ العَبْدَ لَيَمُوتُ فَيُثْنِي عَلَيْهِ القَوْمُ الثنَاءَ يَعْلَم اللَّهُ مِنْهُ غَيْرَهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِملائِكَتِهِ أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ قَبِلْتُ شَهَادَةَ عَبيدي عَلَى عَبْدِي وَتَجَاوَزْتُ عَنْ عِلْمِي فِي عَبْدِي» (٥).

---

(١) صحيح: حديث «إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه». أخرجه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد، [أبو داود: ٤٨٩٩، وانظر صحيح الجامع: ٧٩٤].

(٢) صحيح: حديث «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا». أخرجه البخاري من حديث عائشة أيضا، [البخاري: ١٣٩٣].

(٣) صحيح: حديث «لا تذكروا موتاكم إلا بخير» ... الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا بإسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائي من حديث عائشة بإسناد جيد مقتصرا على ما ذكر منه هنا بلفظ «هلكاكم» وذكر الزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائي والطبراني، [النسائي: ١٩٣٥، وانظر صحيح الجامع: ٢٢٤٥].

(٤) صحيح: حديث أنس: مرت جنازة على رسول الله ﷺ فأثنوا عليها شرا فقال «وجبت». متفق عليه، [البخاري: ١٣٦٧، مسلم: ٩٤٩].

(٥) حديث أبي هريرة «إن العبد ليموت فيثني عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره». أخرجه أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن ربه عز وجل «ما من عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث أبيات

الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور

بيان حقيقة الموت:

اعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنونًا كاذبة قد أخطؤوا فيها.

فظنّ بعضهم: أنّ الموت هو العدم، وأنه لا حشر له ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر، وأنّ موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات. وهذا رأي الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

وظنّ قوم: أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعذاب ولا يتنعم بثواب ما دام في القبر إلى أن يعاد في وقت الحشر.

وقال آخرون: إنّ الروح باقية لا تنعدم بالموت، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد، وإنّ الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلًا.

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق. بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أنّ الموت معناه تغير حال فقط وأنّ الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى إنها لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب، والقلب ههنا عبارة عن الروح، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء. فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث. والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده. وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدّة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها، فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها. وكل الأعضاء آلات والروح هي المستعملة لها، وأعني بالروح: المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغموم ولذات الأفراح. ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات، ولا بطل منها الأفراح والغموم، ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات. والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لا يموت ـ أي لا ينعدم ـ ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له، كما أنّ معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة. فالموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلها وحقيقة الإنسان نفسه

من جيرانه الأدنين بخير إلا قال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبادي على ما علموا وغفرت له ما أعلم».

وروحه وهي باقية.

نعم تغير حاله من جهتين:

إحداهما: أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه، وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه، ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء، فإن المؤلم هو الفراق، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال والألم واحد في الحالتين. وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم، فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه ويعتدّ بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقته، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلًا ويفرح به، وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله، فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة.

والثاني: أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفًا له في الحياة، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفًا له في النوم. والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وأوّل ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته، وقد كان ذلك مسطورًا في كتاب مطوي في سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا، فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسرًا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة، وعند ذلك يقال له: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن، وتشتعل فيه نيران الفراق أعني فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة، فإن من طلب الزاد للبلغة إذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه. وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغني عنه، فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه. وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن.

ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه، ولكن حال المتنعم بالدنيا المطمئن إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحريمه اعتمادًا على أنّ الملك يتساهل في أمره، أو على أنّ الملك ليس يدري ما يتعاطاه من قبيح أفعاله، فأخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دوّنت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرّة ذرّة وخطوة خطوة، والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه في العصاة عليه. فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول

عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسر والندم. فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به، بل عند موته نعوذ بالله منه، فإنّ الخزي والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما. فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين، وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة.

نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك ماهية ذاتها، «ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها، ولا أن يزيد على أن يقول: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء :٨٥]» [(١)]، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت.

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها ـ آيات وأخبار كثيرة.

أما الآيات: فما ورد في الشهداء إذ قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ﴾ [آل عمران :١٦٩-١٧٠]ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله ﷺفقال: «يا فلان يا فُلان يا فُلان قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا» فقيل: يا رسول الله أتناديهم وهم أموات؟ فقال ﷺ «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ لأَسْمَع لِهذا الكَلامِ مِنْكُمْ إلاّ أَنَّهُمْ لا يَقْدِرُونَ عَلَى الجَوَابِ» [(٢)]، فهذا نص في روح الشقي وبقاء إدراكها ومعرفتها والآية نص في أرواح الشهداء. ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة. وقال ﷺ «القَبْرُ إمَّا حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الجَنَّةِ» [(٣)]، وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخير، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله.

وروى أنس عن النبي ﷺأنه قال: «الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته» [(٤)]، وقال ﷺ «إذا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيَةً إنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِن الجَنَّةِ وَإنْ

---

(١)حديث: إنه لم يؤذن لرسول الله ﷺأن يتكلم في الروح. متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح ونزول قوله تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]وقد تقدم.

(٢) صحيح: حديث: «ندائه من قتل من صناديد قريش يوم بدر يا فلان يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقا». أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب، [مسلم: ٢٨٧٣].

(٣)حديث «القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وتقدم في الرجاء والخوف.

(٤)حديث أنس «الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف وقد تقدم.

كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِن النَّارِ وَيُقَالُ هذا مَقْعَدُكَ حَتَّى تُبْعَثَ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(١)]، وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال وعن أبي قيس قال: كنا مع علقمة في جنازة فقال: أما هذا فقد قامت قيامته. وقال علي كرم الله وجهه: حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار؟ وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ غَرِيبًا مَاتَ شَهِيدًا وَوقِيَ فَتَّانَاتِ القَبْرِ وَغُدِيَ وَرِيحَ عَلَيْهِ بِرِزْقِهِ مِنَ الجَنَّةِ»[(٢)] وقال مسروق: ما غبطت مؤمنًا في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى. وقال يعلى بن الوليد: كنت أمشي يومًا مع أبي الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب؟ قال: الموت، قلت: فإن لم يمت؟ قال: يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن، والموت إطلاق المؤمن من السجن. وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالدنيا، والأنس بمن لا بد من فراقه غاية الشقاء. فكل ما سوى الله وذكره والأنس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة. ولهذا قال عبد الله بن عمرو: إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفسح في الأرض ويتقلب فيها. وهذا الذي ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى، وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه؛ فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع.

وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته، فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعًا بالآخرة والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع، وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوّق إليها، فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه وتجرّد القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير. والقتال سبب للموت فكان سببًا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة. فلهذا عظم النعيم، إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريده قال الله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[النحل: ٥٧] فكان هذا أجمع عبارة لمعاني لذات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[سبأ: ٥٤] فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم. وهذا النعيم يدركه الشهيد ـ كما انقطع نفسه ـ من غير تأخير. وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين. وإن أردت عليه شهادة من جهة

---

(١) صحيح: حديث «إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية». متفق عليه من حديث ابن عمر، [البخاري: ١٣٧٩، مسلم: ٢٨٦٦].

(٢) ضعيف جدًا: حديث أبي هريرة «من مات غريبا مات شهيدا ووقي فتّانا القبر». أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبي الدنيا «فتان»، [ابن ماجه: ١٦١٥، بلفظ«مريضًا»، وانظر الضعيفة].

السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه، وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ لجابر: «ألا أبشرك يا جابر» وكان قد استشهد أبوه يوم أُحُد فقال: بلى بشرك الله بالخير فقال: «إن الله عز وجل قد أحيا أباك وأقعده بين يديه وقال: تمن عليَّ يا عبدي ما شئت أعطيكه فقال: يا رب ما عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له: إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع»[(١)]. وقال كعب: يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له: لم تبكي وأنت في الجنة؟ قال: أبكي لأني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة فكنت أشتهي أن أرد فأقتل فيه قتلات.

واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق، ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور، فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم، وقد ضرب له رسول الله ﷺ مثلًا فقال لرجل مات: «أَصْبَحَ هذا مُرْتَحِلًا عَنِ الدُّنْيَا وَتَرَكَها لأَهْلِها فَإِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَ فَلا يسُرُّهُ أَنْ يَرْجعَ إِلَى الدُّنْيا كَمَا لا يسرُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَرْجعَ إِلَى بَطْنِ أُمِّهِ»[(٢)]، فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم.

وقال ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ المُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا كَمَثَلِ الجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ إذا خَرَجَ مِنْ بَطْنِها بَكَى عَلَى مَخْرَجِهِ حَتَّى إذا رَأَى الضَّوْءَ وَوُضِعَ لَمْ يُحِبَّ أَنْ يَرْجعَ إِلَى مَكَانِهِ»[(٣)]، وكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله ﷺ: «إِنَّ فُلانًا قَدْ مَاتَ فَقَالَ مُسْتَرِيحٌ أَوْ مُسْتَرَاحٌ مِنْهُ»[(٤)]، أشار بالمستريح إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه. وقال أبو عمر

---

(١) حسن: حديث عائشة «ألا أبشرك يا جابر». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد فيه ضعف وللترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث جابر «ألا أبشرك بما لقي الله به أباك» قال: بلى يا رسول الله... الحديث وفيه فقال «يا عبدي تمن علي أعطك قال يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه إنه سبق مني أنهم لا يرجعون»، [الترمذي: ٣٠١٠، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي].

(٢) حديث: قال لرجل مات «أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضي فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه». أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلا ورجاله ثقات.

(٣) حديث «إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلفي عن سليم بن عامر الجنائزي مرسلا هكذا.

(٤) حديث: قيل لرسول الله ﷺ إن فلانا قد مات فقال «مستريح أو مستراح منه». متفق عليه من حديث أبي قتادة بلفظ: مر عليه بجنازة فقال ذلك وهو عند ابن أبي الدنيا في الموت باللفظ الذي أورده المصنف.

صاحب السقيا: مرّ بنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فإذا جمجمة بادية فأمر رجلاً فواراها ثم قال: إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئًا وإنما الأرواح التي تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة. وعن عمرو بن دينار قال: ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وإنهم ليغسلونه ويكفنونه وإنه لينظر إليهم. وقال مالك بن أنس: بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت. وقال النعمان بن بشير: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «أَلاَ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إلاّ مِثْلُ الذُّبَابِ يَمُورُ فِي جَوّها فاللَّهَ اللَّه فِي إِخْوَانِكُمْ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ فَإِنَّ أَعْمَالكُمْ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ» (١)، وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «لا تَفْضَحُوا مَوْتَاكُمْ بِسَيِّئَاتِ أَعْمَالِكُمْ فَإِنَّها تُعْرَضُ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ» (٢)، ولذلك قال أبو الدرداء: اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً أخزى به عند عبد الله بن رواحة ـ وكان قد مات وهو خاله ـ وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي؟ قال: في حواصل طير بيض في ظل العرش، وأرواح الكافرين في الأرض السابعة.

وقال أبو سعيد الخدري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ المَيتَ يَعْرِفُ مَنْ يغسِلُهُ وَمَنْ يَحْمِلُهُ وَمَنْ يُدَلِّيهِ في قَبْرِهِ» (٣). وقال صالح المري: بلغني أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم: كيف كان مأواك وفي أي الجسدين كنت في طيب أو خبيث؟ وقال عبيد بن عمير: أهل القبور يترقبون الأخبار، فإذا أتاهم الميت قالوا: ما فعل فلان؟ فيقول: ألم يأتكم... أو ما قدم عليكم؟ فيقولون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة :١٥٦] سلك به غير سبيلنا. وعن جعفر ابن سعيد قال: إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب.

وقال مجاهد: إن الرجل ليبشر بصلاح ولده في قبره. وروى أبو أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ نَفْسَ المُؤْمِنِ إذا قُبِضَتْ تَلَقاها أَهْلُ الرَّحْمَةِ مِنْ عِنْد اللَّهِ كَمَا يتَلَقى البَشِيرُ فِي الدُّنْيا يَقُولُونَ أَنْظِرُوا أَخَاكُمْ حَتَّى يَسْتَرِيحَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي كَرْبٍ شَدِيد فَيَسْأَلُونَهُ: ماذا فَعَلَ فُلانٌ

---

(١) حديث النعمان بن بشير «ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور في جوها فالله الله في إخوانكم من أهل القبور، فإن أعمالكم تعرض عليهم». أخرجه ابن أبي الدنيا وأبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدي عن النعمان من قوله «الله الله» ورواه بكماله الأزدي في الضعفاء وقال لا يصح إسناده وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكماله في ترجمة أبي إسماعيل السكوني رواية عن مالك بن أدي ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول، قال الأزدي لا يصح إسناده وذكر ابن حبان في الثقات مالك بن أدي.

(٢) ضعيف: حديث أبي هريرة «لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور». أخرجه ابن أبي الدنيا والمحاملي بإسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع إنسانا عن أنس «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات... الحديث»، [انظر ضعيف الجامع: ١٣٩٦].

(٣) ضعيف: حديث أبي سعيد الخدري «إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره». رواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسبه عبد الملك بن حسن، [أحمد: ١٠٦١٤، وانظر ضعيف الجامع: ١٧٩٤].

وَمَاذا فَعَلَتْ فُلانَةٌ؟ وَهَلْ تَزَوَجَتْ فُلانَة فَإذا سَأَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ مَاتَ قَبْلَهُ وَقَالَ: مَاتَ قَبْلِي قَالُوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦] ذُهِبَ بِهِ إِلَى أمه الهَاوِيَةِ» (١).

بيان كلام القبر للميت:

وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال، التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الأحياء. قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ القَبْرُ لِلْمَيِّتِ حِينَ يُوْضَعُ فِيهِ وَيْحَكَ يا ابْنَ آدَمَ ما غَرَّكَ بِي أَلَمْ تَعْلَمْ أَنِّي بَيْتُ الفِتْنَةِ وَبَيْتُ الظلْمَةِ وَبَيْتُ الوَحْدَةِ وَبَيْتُ الدُّودِ ما غَرَّكَ بِي إذ كُنْتَ تَمُرُّ بِي فذاذًا؟ فإن كانَ مُصْلِحًا أجابَ عَنْهُ مُجِيبُ القَبْرِ فيقولُ: أَرَأَيْتَ إنْ كانَ يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهى عَنِ المُنْكَرِ فَيَقُولُ القَبْرُ: إنِّي إذًا أَتَحَوَّلُ عَلَيْهِ خَضرًا وَيَعُودُ جَسَدُهُ نورًا وَتَصْعَدُ رُوحُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى» (٢). والفذاذ: هو الذي يقدّم رجلًا ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوي. وقال عبيد بن عمير الليثي: ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها: أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فإن كنت في حياتك لله مطيعًا كنت عليك اليوم رحمة، وإن كنت عاصيًا فأنا اليوم عليك نقمة، أنا الذي من دخلني مطيعًا خرج مسرورًا، ومن دخلني عاصيًا خرج مثبورًا. وقال محمد بن صبيح: بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فعذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى: أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر أما كان لك في متقدّمنا إياك فكرة، أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فهلا استدركت ما فات إخوانك؟

وتناديه بقاع الأرض: أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في بطن الأرض ممن غرّته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولًا تهاداه أحبته إلى المنزل الذي لا بدّ له منه؟ وقال يزيد الرقاشي: بلغني أنّ الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله فقالت: أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا. وقال كعب: إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة، قال: فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بي القيام لله عليهما فيأتونه من قبل رأسه

---

(١) **ضعيف جدًا**: حديث أبي أيوب «إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في مسند الشاميين بإسناد ضعيف، ورواه ابن المبارك في الزهد موقوفا على أبي أيوب بإسناد جيد، ورفعه ابن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائي وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة بإسناد جيد، [**انظر الضعيفة: ٨٦٤**].

(٢) **موضوع**: حديث «يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك بي! ألم تعلم أني بيت الفتنة» ... أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور والطبراني في مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم في السكنى من حديث أبي الحجاج الثمالي بإسناد ضعيف، [**انظر الضعيفة: ٤٩٩٠، بنحوه**].

فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه. قال: فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة: كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه. قال: فيقال له: هنيئًا طبت حيًّا وطبت ميتًا. قال: وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشًا من الجنة ودثارًا من الجنة ويفسح له في قبره مدّ بصره ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره. وقال عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ المَيِّتَ يقْعدُ وَهُوَ يَسْمَعُ خَطْوَ مُشَيِّعِيهِ فَلا يُكَلِّمُهُ شَيْءٌ إلاّ قَبْرُهُ وَيَقُولُ وَيْحَكَ يااِبْنَ آدَمَ أَلَيْسَ قَدْ حذرْتَني وَحذرْتَ ضِيقِي وَنَتَنِي وَهَوْلِي وَدُودِي فَمَاذَا أَعْدَدْتَ لِي» (١).

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير:

قال البراء بن عازب: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكسًا رأسه ثم قال: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ» ثلاثًا ثم قال: «إنَّ المُؤْمِن إذا كانَ فِي قبلِ مِنَ الآخِرَةِ بَعَثَ اللَّهُ مَلائِكَةً كَأَنَّ وُجُوهَهُم الشَّمْسُ مَعَهُمْ حَنُوطُهُ وَكَفَنُهُ فَيَجْلِسُونَ مَدَّ بَصَرِهِ، فإذا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفتحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَلَيْسَ منها بابٌ إلاّ يُحِبُّ أَنْ يُدْخَلَ بروحِهِ مِنْهُ، فإذا صُعِدَ بِرُوحِهِ قِيلَ: أيْ رَبِّ عَبْدُكَ فلانٌ فَيَقُولُ أَرْجِعُوهُ فَأَرُوهُ ما أَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الكَرَامَةِ فَإِنِّي وَعَدْتُهُ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه :٥٥] وإنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إذا وَلَّوا مُدْبِرِينَ حَتَّى يُقَالُ: يا هذا مَنْ رَبُّكَ وما دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ وَدِينِي الإِسْلامُ وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ قال: فَيَنْتَهِرَانِهِ انْتِهَارًا شَدِيدًا وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى المَيِّتِ، فإذا قالَ ذلِكَ نَادَى مُنَادٍ أَنْ قدْ صَدَقْتَ وَهِيَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم :٢٧] ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الوَجْهِ طَيِّبُ الرِّيحِ حَسَنُ الثِّيَابِ فيقولُ: أَبْشِرْ بِرَحْمَةِ رَبِّكَ وَجَنَّاتٍ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ، فيقول: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ مِنْ أَنْتَ؟ فيقولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِح وَاللَّهِ ما عَلِمْتُ إنْ كُنْتَ لَسَرِيعًا إلَى طَاعَةِ اللَّهِ بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا» قال: «ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ افْرُشُوا لَهُ مِنْ فَرشِ الجَنَّةِ وافْتَحُوا لَهُ بابًا إلى الجَنَّةِ فَيُفْرَشُ لَهُ مِنْ فَرشِ الجَنَّةِ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إلَى الجَنَّةِ فيقولُ: اللَّهُمَّ عَجِّلْ قِيامَ السَّاعَةِ حَتَّى أَرْجِعَ إلَى أَهْلِي وَمالي» قال: «وأَمَّا الكافِرُ فإنَّهُ إذا كانَ فِي قبل مِنَ الآخِرَةِ وانقطاعٍ مِنَ الدُّنْيا نزلت إلَيْهِ مَلائِكَةٌ

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء إلا قبره ويقول ويحك يابن آدم». أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلغني ولم يرفعه.

غِلاظٌ شِدَادٌ مَعهم ثيابٌ مِنْ نارٍ وَسَرَابِيلُ مِنْ قطرَانٍ فَيَحْتَوشُونَهُ فإذا خَرَجَتْ نَفْسُهُ لَعَنَهُ كُلُّ مَلَكٍ بَينَ السَّماءِ وَالأَرْضِ وكل مَلكٍ فِي السَّماء وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ السَّماءِ فَلَيسَ مِنْها بابٌ إلاّ يَكْرَهُ أَنْ يدْخلَ بِرُوحِهِ مِنْهُ، فإذا صَعِدَ بِروحِهِ نُبِذَ وَقيلَ: أيْ رَبِّ عَبْدُكَ فلانٌ لم تَقْبَلْهُ سَمَاءٌ وَلا أَرْضٌ فيقول اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْجِعُوهُ فَأَرُوهُ ما أعددت له من الشَّرِّ إنِّي وَعَدْتُه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه :٥٥] وإنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حَتَّى يقال لهُ: يا هذا مَنْ رَبُّكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ وَما دِينُكَ؟ فيقولُ: لا أدْرِي فيقالُ: لا دَرَيْتَ، ثمَّ يأتيهِ آتٍ قَبيحُ الوجهِ مُنْتِنُ الرِّيحِ قبيحُ الثِّيابِ فيقولُ: أَبْشِرْ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّه وَبِعَذابٍ أَلِيمٍ مُقِيم فيقولُ: بَشرَكَ اللَّهُ شَرًّا مَنْ أَنْتَ؟ فيقولُ: أنا عَمَلُكَ الخَبِيثُ، واللَّهِ إنْ كنتَ لَسَرِيعًا في مَعْصِيَةِ اللَّهِ بطيئًا عن طاعةِ اللَّهِ فجزاك اللَّهُ شَرًّا فيقولُ: وَأَنتَ فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا، ثم يُقَيَّضُ له أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ مَعَهُ مرزبةٌ مِنْ حديدٍ لو اجتمعَ عليها الثَّقَلانِ على أنْ يُقِلُّوها لم يَسْتَطِيعُوا، لَوْ ضُرِبَ بها جبلٌ صَارَ تُرابًا، فيضربُهُ بها ضربةً فَيَصِيرُ ترابًا، ثم تَعُودُ فيه الرُّوحُ فيضربهُ بها بين عينيه ضربةً يَسْمَعُهَا مَنْ عَلَى الأَرَضِيْنَ، ليسَ الثَّقَلَينِ قال: ثم يُنادِي مُنادٍ أن افرشوا له لَوْحَينِ مِنْ نارٍ وَافْتَحُوا لَهُ بابًا إلى النَّارِ فَيُفْرَشُ لَهُ لَوْحَانِ من نارٍ وَيُفْتَحُ لَهُ بابٌ إلَى النَّارِ» (١).

وقال محمد بن علي: ما من ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال: فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته.

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المُؤْمِن إذا احْتضرَ أَتَتْهُ المَلائِكَةُ بِحَريرَةٍ فيها مِسْكٌ وَضَبَائِرُ الرَّيْحَانِ فَتُسَلُّ رُوحُهُ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ العَجِينِ ويقالُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ اخْرُجِي رَاضِيَةً وَمَرْضِيًّا عَنْكِ إلَى رُوحِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ فإذا أُخْرِجَتْ رُوحُهُ وُضِعَتْ عَلَى ذلِكَ المِسْكِ وَالرَّيْحَانِ وَطُوِيَتْ عَلَيْهَا الحَرِيرَةُ وَبُعِثَ بِها إلى عِلِّيِّينَ وإنَّ الكَافِرَ إذا احْتضِرَ أَتَتْهُ المَلائِكَةُ بِمسحٍ فِيهِ جَمْرَةٌ فَتَنْزَعُ رُوحُهُ انْتِزَاعًا شَدِيدًا ويقال: أَيَّتُها النَفْسُ الخَبِيثَةُ اخْرُجِي سَاخِطَةً وَمَسْخُوطًا عَلَيْكِ إلَى هَوَانِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ فإذا أُخْرِجَت رُوحُهُ وُضِعَتْ على تِلْكَ الجَمْرَةِ وإنَّ لها نَشِيشًا وَيُطْوَى عَليها المِسْح وَيُذْهَبُ بِها إلى سِجِّين» (٢).

وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون :٩٩-١٠٠] قال: أي شيء تريد في أي شيء

---

(١) صحيح: حديث البراء: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكسا رأسه ثم قال «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر» ... أخرجه أبو داود والحاكم بكماله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا، [أبو داود: ٤٧٥١، وانظر صحيح الجامع: ١٦٧٦].

(٢) حديث أبي هريرة «إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان». أخرجه ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبزار بلفظ المصنف.

ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار؟ قال: لا، لعلي أعمل صالحًا فيما تركت، قال: فيقول الجبار: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠] أي ليقولنها عند الموت. وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «المُؤْمِن فِي قَبْرِهِ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ وَيُرْحَبُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيُضِيءُ حَتَّى يَكونَ كالقَمَرِ ليلةَ البَدْرِ، هَلْ تَدْرُونَ فِي ماذا أُنْزِلَتْ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «عَذَابُ الكافِرِ فِي قَبْرِهِ يُسَلَّطُ عَلَيْهِ تِسْعَة وَتِسْعُونَ تِنِّينًا هَلْ تَدْرُونَ ما التِّنِّينُ، تسعةٌ وتِسْعُونَ حَيَّةً لكلِّ حَيَّةٍ تسعةُ رؤوس يخدشونهُ ويلحسونهُ وينفخونَ فِي جِسْمِهِ إلى يَوْم يُبْعَثُونَ» [1]، ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص، فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات، فإن لها أصولًا معدودة، ثم تتشعب منها فروع معدودة، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام. وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات، فالقوي منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذي إيذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوّة. فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة، فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم.

فإن قلت: فنحن نشاهد الكافر في قبره مدّة ونراقبه ولا نشاهد شيئًا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا.

أحدها: وهو الأظهر والأصح والأسلم أن تصدّق بأنها موجودة وهي تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت. أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك، وإن كنت آمنت به وجوّزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا في الميت؟ وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى.

المقام الثاني: أن تتذكر أمر النائم وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصيح في نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه، وكل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به

---

(١) **حسن**: حديث أبي هريرة «المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا» ... رواه ابن حبان، [انظر صحيح الترغيب: ٣٥٥٢].

كما يتأذى اليقظان، وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنًا ولا ترى حواليه حية، والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقك غير مشاهد. وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد.

المقام الثالث: أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاك منها وهو السم، ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر، وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة، فإنه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع مثلًا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه لتكون الإضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب، والسبب يراد لثمرته لا لذاته.

وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات. وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيًا عند موت المعشوق، فإنه كان لذيذًا فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلمًا، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال، بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فإنه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه، ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله؟ أليس يعظم شقاؤه ويشتدّ عذابه ويتمنى ويقول ليته لم يكن لي مال قط ولا جاه قط فكنت لا أتأذى بفراقه؟ فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة.

ما حال من كان له واحد ... غيب عنه ذلك الواحدُ

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه وتسلم إلى أعدائه؟ ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به، فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرته ما فاته من نعيم الآخرة أبد الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى، وذلك هو العذاب الذي يعذب به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥-١٦] وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقًا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون.

والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب. فإذن ألم فراق الفرس عنده أعظم من العقرب، وحبه الفرس هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه. فليستعد لهذه اللدغات؛ فإن الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه، ويأخذ منه جاهه وقبوله، بل يأخذ منه سمعه

وبصره وأعضاءه ويـيأس من رجوع جميع ذلك إليه. فإذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات، وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيعظم عقابه فكذلك إذا مات، لأنا قد بينا أن المعنى الذي هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشدّ. لأنه في الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة بعد الموت، إذ قد انسدّ عليه طرق التسلي وحصل اليأس. فإذن كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفًا عليه ومعذبًا به، فإن كان مخفًّا في الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم: نجا المخفون، وإن كان مثقلًا عظم عذابه. وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير، فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعنى بقوله ﷺ: «صاحب الدرهم أخفّ حسابًا من صاحب الدرهمين» (١)، وما من شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت، فإن شئت فاستكثر وإن شئت فاستقلل، فإن استكثرت فلست بمستكثر إلا من الحسرة، وإن استقللت فلست تخفف إلا عن ظهرك.

وإنما تكثر الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها. فهذه مقامات الإيمان في حياة القبر وعقاربه وفي سائر أنواع عذابه.

رأى أبو سعيد الخدري ابنًا له قد مات في المنام فقال له: يا بني عظني، قال: لا تخالف الله تعالى فيما يريد، قال: يا بني زدني، قال: يا أبت لا تطيق قال: قل، قال: لا تجعل بينك وبين الله قميصًا. فما لبس قميصًا ثلاثين سنة.

فإن قلت: فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث؟ فاعلم أن في الناس من لم يثبت إلا الأوّل وأنكر ما بعده. ومنهم من أنكر الأوّل وأثبت الثاني. ومنهم من لم يثبت إلا الثالث. وإنما الحق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك في حيز الإمكان. وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره، فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور. بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب. ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع، ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره.

هذا هو الحق فصدّق به تقليدًا فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقًا، والذي أوصيك به أن لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان. فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك، كنت كمن

(١) حديث «صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين». لم أجد له أصلا.

أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه، فأخذ طول الليل يتفكر في أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى؟ وأهمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل، فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم، فينبغي أن يكون الاستعداد له. فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان.

بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر:

قال أبو هريرة: قال النبي ﷺ «إذا مَاتَ العَبْدُ أتاهُ مَلَكَانِ أسْوَدَانِ أزْرَقَانِ يقالُ لأَحَدِهِمَا مُنْكَرٌ وَلِلآخَرَ نَكِيرٌ، فيقولان لهُ: ما كنتَ تقولُ في النَّبيِّ؟ فَإنْ كانَ مؤمنًا قال هُوَ عَبْدُ الله ورسولُهُ أَشْهَدُ أنْ لا إله إلاَّ اللَّهُ وأنَّ محمدًا رسولُ الله، فيقولان: إنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أنَّكَ تقولُ ذلك، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين ذراعًا وينور له في قبره، ثم يقال له: نم، فيقولُ: دَعُونِي أَرْجِعْ إلى أهلي فَأُخْبِرهُمْ، فيقالُ له: نَمْ فينامُ كَنَوْمَةِ العروس الذي لا يُوقِظُهُ إلا أحَبُّ أهلِهِ إليهِ حَتَّى يبعثهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذلكَ. وإن كان مُنافقًا قال: لا أدْرِي كنتُ أَسْمَعُ الناسَ يقولونَ شَيْئًا وكنتُ أقوله، فيقولان: إنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تقولُ ذَلِكَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ الْتَئِمِي عَلَيْهِ فَتَلْتَئِم عَليهِ حتى تَخْتَلِفَ فِيها أضلاعُهُ فلا يزالُ مُعَذبًا حَتَّى يبعثهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذلِكَ» (١).

وعن عطاء بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر، ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك، ثم احتملوك حتى يضعوك فيه، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجرّان أشعارهما ويبحثان القبر بأنيابهما فتلتلاك وترتراك، كيف بك عند ذلك يا عمر؟» فقال عمر: ويكون معي مثل عقلي الآن؟ قال: «نَعَمْ» قال: «إذن أكفيكهما» (٢)، وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء. فيكون الميت عاقلًا مدركًا عالمًا بالآلام واللذات كما كان، لا يتغير من عقله شيء. وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لا ينقسم في نفسه هو المدرك للأشياء. ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا

---

(١) حسن: حديث أبي هريرة «إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير». أخرجه الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف، [الترمذي: ١٠٧١، وانظر صحيح الجامع: ٧٢٤].

(٢)حديث عطاء بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه «يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات قال البيهقي في الاعتقاد. رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلا قلت: ووصله ابن بطة في الإبانة من حديث ابن عباس، ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الإسناد تفرد به مفضل ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر ؛ فقال عمر: أيرد إلينا عقولنا؟ فقال «نعم كهيئتكم اليوم» فقال عمر: يفيه الحجر.

يتجزأ ولا ينقسم لكان الإنسان العاقل بكماله قائمًا باقيًا وهو كذلك بعد الموت، فإن ذلك الجزء لا يحله الموت ولا يطرأ عليه العدم.

وقال محمد بن المنكدر: بلغني أنّ الكافر يسلط عليه في قبره دابة عمياء صماء في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة. لا تراه فتتقيه ولا تسمع صوته فترحمه.

وقال أبو هريرة: إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته، فإن أتاه من قبل رأسه جاء قراءته القرآن. وإن أتاه من قبل رجليه جاء قيامه، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان: والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء لا سبيل لكم عليه، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه، وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إني لو رأيت خللًا لكنت أنا صاحبه. قال سفيان: تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده، ثم يقال له عند ذلك: بارك الله لك في مضجعك فنعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك.

وعن حذيفة قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيها ثم قال: «يُضْغَطُ المُؤْمِنُ فِي هذا ضَغْطَةً تُرَدُّ مِنْهُ حَمَائِلُهُ» (١). وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً وَلَوْ سَلِمَ أَوْ نَجَا مِنْها أَحَدٌ لَنَجَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ» (٢).

وعن أنس قال: توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ وكانت امرأة مسقامة، فتبعها رسول الله ﷺ فساءنا حاله، فلما انتهينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة، فلما خرج أسفر وجهه، فقلنا: يا رسول الله رأينا منك شأنًا فمم ذلك؟ قال: «ذكرتُ ضَغْطَةَ ابْنَتِي وَشِدَّةَ عَذَابِ القَبْرِ، فَأَتَيْتُ فَأَخْبِرتُ أَنَّ اللَّهَ قد خَفَّفَ عَنْها وَلَقَدْ ضُغِطَتْ ضَغْطَةً سَمِعَ صَوْتَهَا ما بَيْنَ الخَافِقَيْنِ» (٣).

الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

اعلم أن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومن مناهج الاعتبار تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء. ولكن حال زيد وعمرو بعينه لا ينكشف أصلًا، فإنا إن عوّلنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له؟ وإن عوّلنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره؟ فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا

---

(١) حديث حذيفة: كنت مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال «يضغط المؤمن في هذا ضغطة ترد منه حمائله». رواه أحمد بسند ضعيف، [أحمد: ٢٢٩٤٧].

(٢) صحيح: حديث عائشة «إن للقبر ضغطة لو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ». رواه أحمد بإسناد جيد، [انظر صحيح الجامع: ٢١٨٠].

(٣) حديث أنس: توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ وكانت امرأة مسقامة، وفيه «لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه.

﴿يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه، وإذا مات فقد تحوّل من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة، وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان، ولكنّ الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها، ولا يتصور أن يبصر بها شيئًا من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه.

ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه، والموتى في عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا. ولذلك رأى رسول الله ﷺ ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته [(١)]. وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر. ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم.

إنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أنها أيضًا مشاهدة نبوية وأعني بها المشاهدة في المنام وهي من أنوار النبوّة. قال رسول الله ﷺ «الرُّؤْيَا الصَّالِحَة جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ» [(٢)]. وهو أيضًا انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدّق رؤياه، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام، ولذلك أمر رسول الله ﷺ بالطهارة عند النوم لينام طاهرا [(٣)]. وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضًا فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها. ومهما صفا الباطن انكشف في حدقة القلب ما سيكون في المستقبل، كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النوم حتى نزل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] [(٤)]. وقلما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة، والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمي وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة.

ولكن القدر الذي يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود؛ وهو أن تعلم أنّ القلب مثاله

---

(١) حديث: رأى رسول الله ﷺ ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جابر لما استشهد. تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله.

(٢) حديث «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة». تقدم.

(٣) حديث: أمره بالطهارة عند النوم. متفق عليه من حديث البراء «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة... الحديث».

(٤) حديث: انكشف دخول مكة لرسول الله ﷺ في النوم. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية مجاهد مرسلا.

مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الأمور، وأنّ كل ما قدّره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح، وتارة بالكتاب المبين، وتارة بإمام مبين؛ كما ورد في القرآن. فجميع ما جرى في العالم وما سيجري مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشًا لا يشاهد بهذه العين. ولا تظنن أنّ ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم، وأنّ الكتاب من كاغد أو رق، بل ينبغي أن تفهم قطعًا أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق، كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم. بل إن كنت تطلب له مثالًا يقرّبه إلى فهمك فاعلم أنّ ثبوت المقادير في اللوح يضاهي ثبوت كلمات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه، فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه، ولو فتشت دماغه جزءًا جزءًا لم تشاهد من ذلك الخط حرفًا. وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا النمط ينبغي أن تفهم كون اللوح منقوشًا بجميع ما قدّره الله تعالى وقضاه. واللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصور، فلو وضع في مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب، فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو من عالم ملكوت، فإن هبت ريح حرّكت هذا الحجاب ورفعته تلألأ في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف، وقد يثبت ويدوم، وقد لا يدوم وهو الغالب. وما دام متيقظًا فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة، وهو حجاب عن عالم الملكوت.

ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا تورده على القلب، فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيًا في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ، فوقع في قلبه شيء مما في اللوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما، إلا أنّ النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعًا للخيال عن عمله وعن تحركه فما يقع في القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه، وتكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال، فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني بالمناسبة التي بين المتخيل والمعاني، وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير. ويكفيك مثال واحد وهو أنّ رجلًا قال لابن سيرين: رأيت كأنّ بيدي خاتمًا أختم به أفواه الرجال وفروج النساء. فقال: أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان، قال: صدقت فانظر أنّ روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم. وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه، وهو كونه مانعًا للناس من الأكل والشرب، ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية.

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذي لا تنحصر عجائبه وكيف لا وهو أخو الموت، وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب، حتى صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل فماذا ترى في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية، حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخازي والفضائح نعوذ بالله من ذلك وإما مكنوفًا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] ويقال: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٥-١٦] وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل همّ وغمّ إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عماذا يرتفع وما الذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة؟ لكان ذلك كافيًا في استغراق جميع العمر.

والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذرّيتنا بل بأعضائنا وسمعنا وبصرنا مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينًا، ولكن أين من ينفث روح القدس في روعه فيقول ما قال لسيد النبيين: «أحبب من أحببت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به»[(١)]، فلا جرم لما كان ذلك مكشوفًا له بعين اليقين كان في الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة[(٢)]، ولم يخلف دينارًا ولا درهما[(٣)]، ولم يتخذ حبيبًا ولا خليلًا نعم قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمنِ»[(٤)]، فبين أنّ خلة الرحمن تخللت باطن قلبه وأنّ حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعًا لخليل ولا حبيب وقد قال لأمته: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فإنما أمته من اتبعه، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة، فإنه ما دعا إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة، فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الذي سلكه وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتبعته. وبقدر ما اتبعته فقد صرت من أمته، وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته والتحقت بالذين قال الله

(١) حديث «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه» ... الحديث تقدم.
(٢) حديث: لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة. تقدم أيضا.
(٣) حديث: لم يخلف دينارا ولا درهما. تقدم أيضا.
(٤) حديث «لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكرخليلًا ولكن صاحبكم خليل الرحمن». تقدم أيضًا.

تعالى فيهم: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ [النازعات :٣٧-٣٩] فلو خرجت من مكمن الغرور وأنصفت نفسك يا رجل وكلنا ذلك الرجل لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسي لا تسعى إلا في الحظوظ العاجلة، ولا تتحرّك ولا تسكن إلا لعاجل الدنيا ثم تطمع أن تكون عدًا م ن أمته وأتباعه وما أبعد ظنك وما أبرد طمعك: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم :٣٥-٣٦]

ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصدده فقد امتدّ عنان الكلام إلى غير مقصده، ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات.

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة:

فمن ذلك رؤيا رسول الله ﷺوقد قال عليه السلام: «مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّلُ بِي» [(١)]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺفي المنام فرأيته لا ينظر إليَّ فقلت: يا رسول الله ما شأني فالتفت إلي وقال: «ألست المقبّل وأنت صائم؟» قال: والذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبدًا. وقال العباس رضي الله عنه: كنت ودًّا لعمر فاشتهيت أن أراه في المنام، فما رأيته إلا عند رأس الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول: هذا أوان فراغي إن كان عرشي ليهدّ لولا أني لقيته رؤوفًا رحيمًا. وقال الحسن بن علي: قال لي علي رضي الله عنه: إنّ رسول الله ﷺسنح لي الليلة في منامي فقلت: يا رسول الله ما لقيت من أمتك؟ قال: ادع عليهم، فقلت: اللهم أبدلني بهم من هو خير لي منهم وأبدلهم بي من هو شر لهم مني فخرج فضربه ابن ملجم. وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله ﷺفقلت: يا رسول الله استغفر لي، فأعرض عني فقلت: يا رسول الله إن سفيان بن عيينة حدّثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله: إنك لم تسأل شيئًا قط فقلت: لا، فأقبل عليَّ فقال: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ» [(٢)].

وروي عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت مؤاخيًا لأبي لهب مصاحبًا له، فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمني أمره فسألت الله تعالى حولًا أن يريني إياه في المنام قال: فرأيته يلتهب نارًا فسألته عن حاله فقال: صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروّح إلا ليلة الاثنين في كل الأيام والليالي قلت: وكيف ذلك؟ قال: ولد في تلك الليلة محمد ﷺفجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعتقت وليدة لي فرحًا به، فأثابني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين.

---

(١)حديث «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي». متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢)حديث ابن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر: ما سئل النبي ﷺشيئا قط فقال لا. رواه مسلم وقد تقدم.

وقال عبد الواحد بن زيد: خرجت حاجًا فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي ﷺ، فسألته عن ذلك فقال: أخبرك عن ذلك؛ خرجت أول مرة إلى مكة ومعي أبي، فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل؛ فبينا أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه قال: فقمت مذعورًا فكشف الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه، فداخلني من ذلك رعب، فبينا أنا في ذلك الغم إذا غلبتني عيني فنمت فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم: تنحوا، فمسح وجهه بيده ثم أتاني فقال: قم فقد بيَّض الله وجه أبيك فقلت له: من أنت بأبي أنت وأمي؟ فقال: أنا محمد. قال: فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبي فإذا هو أبيض فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله ﷺ.

وعن عمر بن عبد العزيز قال: رأيت رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده، فسلمت وجلست، فبينما أنا جالس إذ أتي بعلي ومعاوية فأدخلا بيتًا وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي رضي الله عنه وهو يقول: قضي لي ورب الكعبة، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة.

واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال: قتل الحسين والله ـ وكان ذلك قبل قتله ـ فأنكره أصحابه فقال: رأيت رسول الله ﷺ ومعه زجاجة من دم فقال: ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدي؟ قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى. فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يومًا بقتله في اليوم الذي رآه.

ورئي الصديق رضي الله عنه فقيل له: إنك كنت تقول أبدًا في لسانك: هذا أوردني الموارد، فماذا فعل الله بك؟ قال: قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة.

بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين:

قال بعض المشايخ: رأيت متممًا الدورقي في المنام فقلت: يا سيدي ما فعل الله بك؟ فقال: دير بي في الجنان فقيل لي: يا متمم هل استحسنت فيها شيئًا؟ قلت: لا يا سيدي، فقال: لو استحسنت منها شيئًا لوكلتك إليه ولم أوصلك إلي. ورئي يوسف بن الحسين في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قيل: بماذا؟ قال: ما خلطت جدًّا بهزل. وعن منصور بن إسماعيل قال: رأيت عبد الله البزار في النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنبًا واحدًا فإني استحييت أن أقرّ به، فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي فقلت: ما كان ذلك الذنب؟ قال: نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره.

وقال أبو جعفر الصيدلاني: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وحوله جماعة من الفقراء، فبينما

نحن كذلك إذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما: بيده طشت، وبيد الآخر: إبريق، فوضع الطشت بين يدي رسول الله ﷺ فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا، ثم وضع الطشت بين يدي فقال أحدهما للآخر: لا تصب على يده فإنه ليس منهم فقلت: يا رسول الله ﷺ أليس قد روي عنك أنك قلت: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» ؟

قال: بلى، قلت: يا رسول الله فإني أحبك وأحب هؤلاء الفقراء فقال ﷺ: «صُبَّ عَلَى يَدِهِ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ».

وقال الجنيد: رأيت في المنام كأني أتكلم على الناس فوقف علي ملك فقال: أقرب ما تقرّب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا؟ فقلت: عمل خفي بميزان وفي فولّى الملك وهو يقول: كلام موفق والله. ورئي مجمع في النوم فقيل له: كيف رأيت الأمر؟ فقال: رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة. وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد: رأيتك في النوم كأنك في الجنة فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال: لعل الشيطان أراد أمرًا فعصمت منه فأشخص رجلًا يقتلني وقال محمد بن واسع: الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره. وقال صالح بن بشير: رأيت عطاء السلمي في النوم فقلت له: رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا، قال: أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحًا دائمًا، فقلت: في أي الدرجات أنت؟ فقال: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وسئل زرارة بن أبي أوفى في المنام: أي الأعمال أفضل عندكم؟ فقال: الرضا وقصر الأمل. وقال يزيد بن مذعور: رأيت الأوزاعي في المنام فقلت: يا أبا عمرو دلني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى قال: ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين. قال: وكان يزيد شيخًا كبيرًا، فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه. وقال ابن عيينة: رأيت أخي في المنام فقلت: يا أخي ما فعل الله بك؟ فقال: كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي. وقال علي الطلحي: رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت: من أنت؟ فقالت: حوراء، فقلت زَوجيني نفسك، قالت: اخطبني إلى سيدي وأمهرني، قلت: وما مهرك؟ قالت: حبس نفسك عن آفاتها. وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي: رأيت زبيدة في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي، فقلت لها: بما أنفقت في طريق مكة؟ قالت: أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها، وغفر لي بنيتي. ولما مات سفيان الثوري رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: وضعت أوّل قدمي على الصراط والثاني في الجنة. وقال أحمد بن أبي الحواري: رأيت فيما يرى النائم جارية، ما رأيت أحسن منها وكان يتلألأ وجهها نورًا، فقلت لها: مماذا ضوء وجهك؟ قالت: تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها؟ قلت: نعم، قالت: أخذت دمعك فمسحت به وجهي، فمن ثم ضوء وجهي كما ترى.

وقال الكتاني: رأيت الجنيد في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: طاحت تلك

الإشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما في الليل. ورئيت زبيدة في المنام فقيل لها: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي بهذه الكلمات الأربع: لا إله إلا الله أفني بها عمري، لا إله إلا الله أدخل بها قبري، لا إله إلا الله أخلو بها وحدي، لا إله إلا الله ألقى بها ربي. ورئي بشر في المنام فقيل له: ما فعل الله بك: قال: رحمني ربي عز وجل وقال: يا بشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف. ورئي أبو سليمان في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني وما كان شيء أضر عليّ من إشارات القوم إلي. وقال أبو بكر الكتاني: رأيت في النوم شابًا لم أر أحسن منه فقلت له: من أنت؟ قال: التقوى قلت: فأين تسكن؟ قال: كل قلب حزين ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت من أنت قالت أنا السقم قلت فأين تسكنين قالت كل قلب فرح مرح قال: فانتبهت وتعاهدت أن لا أضحك إلا غلبة. وقال أبو سعيد الخراز: رأيت في المنام كأن إبليس وثب عليّ، فأخذت العصا لأضربه فلم يفزع منها، فهتف بي هاتف: إن هذا لا يخاف من هذه، وإنما يخاف من نور يكون في القلب. وقال المسوحي: رأيت إبليس في النوم يمشي عريانًا فقلت: ألا تستحي من الناس فقال: بالله هؤلاء ناس لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي، وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية. وقال أبو سعيد الخراز: كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبي ﷺ جاءني متكئًا على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فجاء فوقف علي وأنا أقول شيئًا من الأصوات وأدق في صدري، فقال: شر هذا أكثر من خيره. وعن ابن عيينة قال: رأيت سفيان الثوري في النوم كأن في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] فقلت له: أوصني، قال: أقلل من معرفة الناس، وروى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال: رأيت سفيان الثوري فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال:

نظرت إلى ربي كفاحًا فقال لي ... هنيئًا رضائي عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قوّامًا إذا أظلم الدجى ... بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أي قصر أردته ... وزرني فإني منك غير بعيد

ورئي الشبلي بعد موته بثلاثة أيام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: ناقشني حتى أيست، فلما رأى يأسي تغمدني برحمته. ورئي مجنون بني عامر بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وجعلني حجة على المحبين. ورئي الثوري في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني، فقيل له: ما حال عبد الله بن المبارك؟ فقال: هو ممن يلج على ربه في كل يوم مرتين. ورئي بعضهم فسئل عن حاله فقال:

حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا

ورئي مالك بن أنس فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن

عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحي الذي لا يموت. ورئي في الليلة التي مات فيها الحسن البصري كأن أبواب السماء مفتحة، وكأن مناديًا ينادي ألا إن الحسن البصري قدم على الله وهو عنه راض. ورئي الجاحظ فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال:

ولا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عريانًا فقال: ألا تستحي من الناس؟ فقال: وهؤلاء ناس الناس أقوام في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدي وأحرقوا كبدي قال الجنيد: فلما انتبهت عدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رؤوسهم على ركبهم يتفكرون، فلما رأوني قالوا لا يغرّنك حديث الخبيث. ورئي النصر آباذي بمكة بعد وفاته في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت: يا أبا القاسم أبعد الاتصال انفصال؟ فقلت: لا يا ذا الجلال، فما وضعت في اللحد حتى لحقت بربي. ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة أنا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئًا فيحال بيني وبينك، فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثًا لا رجعة لي عليها حتى ألقاك. وقيل: رأى أيوب السختياني جنازة عاص، فدخل الدهليز كيلا يصلي عليها. فرأى الميت بعضهم في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وقال: قل لأيوب: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠] وقال بعضهم: رأيت في الليلة التي مات فيها داود الطائي نورًا، وملائكة نزولًا وملائكة صعودًا؛ فقلت: أي ليلة هذه؟ فقالوا: ليلة مات فيها داود الطائي وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه. وقال أبو سعيد الشحام: رأيت سهلًا الصعلوكي في المنام فقلت: أيها الشيخ قال: دع التشييخ، قلت: تلك الأحوال التي شاهدتها، فقال: لم تغن عنا فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بمسائل كان يسأل عنها العجز. وقال أبو بكر الرشيدي: رأيت محمدًا الطوسي المعلم - في النوم - فقال لي: قل لأبي سعيد الصفار المؤدب:

وكنا على أن لا نحول عن الهوى فقد وحياة الحب حلتم وما حلنا

قال: فانتبهت فذكرت ذلك له فقال: كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة. وقال ابن راشد: رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى، قلت: فما صنع الله بك؟ قال: غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب، قلت: فسفيان الثوري؟ قال: بخ بخ ذاك: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩] الآية: وقال الربيع بن سليمان: رأيت الشافعي رحمة الله عليه بعد وفاته في المنام فقلت: يا أبا عبد الله ما صنع الله بك؟ قال: أجلسني على كرسي من ذهب ونثر عليّ اللؤلؤ الرطب. ورأى رجل من أصحاب الحسن البصري ليلة مات الحسن كأن مناديًا ينادي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، واصطفى الحسن البصري على أهل زمانه. وقال أبو يعقوب القاري الدقيقي: رأيت في منامي رجلًا آدم طوالًا والناس يتبعونه فقلت: من هذا؟ قالوا:

أويس القرني، فأتيته فقلت: أوصني رحمك الله فكلح في وجهي فقلت مسترشد فأرشدني أرشدك الله، فأقبل عليّ وقال: اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك، ثم ولى وتركني.

وقال أبو بكر بن أبي مريم: رأيت ورقاء بن بشر الخضرمي فقلت: ما فعلت يا ورقاء؟ قال: نجوت بعد كل جهد، قلت: فأى الأعمال وجدتموها أفضل، قال: البكاء من خشية الله. وقال يزيد بن نعامة: هلكت جارية في الطاعون الجارف فرآها أبوها في المنام فقال لها: يا بنية أخبريني عن الآخرة؟ قالت: يا أبت قدمنا على أمر عظيم، نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في فسحة عمل أحب إليّ من الدنيا وما فيها. وقال بعض أصحاب عتبة الغلام رأيت عتبة في المنام فقلت ما صنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة في بيتك قال فلما أصبحت جئت إلى بيتي فإذا خط عتبة الغلام في حائط البيت: (يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين، واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين آمين يا رب العالمين).

وقال موسى بن حماد: رأيت سفيان الثوري في الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت: يا أبا عبد الله بم نلت هذا؟ فقال: بالورع، قلت: فما بال علي بن عاصم؟ قال: ذاك لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب. ورأى رجل من التابعين النبي ﷺ في المنام فقال يا رسول الله عظني، قال: نعم من لم يتفقد النقصان فهو في نقصان ومن كان في نقصان فالموت خير له.

وقال الشافعي رحمة الله عليه: دهمني في هذه الأيام أمر أمضني وآلمني ولم يطلع عليه غير الله عز وجل، فلما كان البارحة أتاني آت في منامي فقال لي يا محمد بن إدريس قل اللهم إني لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ولا أتقي إلا ما وقيتني اللهم فوفقني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية؛ فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطاني الله عز وجل طلبتي وسهل لي الخلاص مما كنت فيه، فعليكم بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها. فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الأعمال المقرّبة إلى الله زلفى، فلنذكر بعدها ما بين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما في الجنة أو في النار، والحمد لله حمد الشاكرين.

* * *

الشطر الثاني: من كتاب ذكر الموت في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الإستقرار في الجنة أو في النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار

وفيه بيان نفخة الصور وصفة أرض المحشر وأهله. وصفة طول يوم القيامة. وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها. وصفة المساءلة عن الذنوب. وصفة الميزان، وصفة الخصماء ورد المظالم، وصفة الصراط، وصفة الشفاعة. وصفة الحوض. وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها. وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسررهم، وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان. وصفة النظر إلى وجه الله تعالى. وباب في سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى.

صفة نفخة الصور:

قد عرفت فيما سبق تأثير أحوال الميت في سكرات الموت وخطره في خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه، ثم لمنكر ونكير وسؤالهما، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوبًا عليه. وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير، ونصب الميزان لمعرفة المقادير، ثم جواز الصراط مع دقته وحدّته، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء. فهذه أحوال وأهوال لا بدّ لك من معرفتها، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق، ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها، وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحرّ الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحرّ جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال، بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم، ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبر: صدقت، ثم مدّ يديه لتناوله؛ كان مصدقًا بلسانه ومكذبًا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان. وقد قال النبي ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى شَتَمَنِي ابْن آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتُمَنِي، وَكَذَّبَنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي، أَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَيَقُولُ إِنَّ لِي وَلَدًا وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ لَنْ يَعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي» [(١)]، وإنما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم لأمثال تلك الأمور ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له إن صانعًا يصنع من النطفة القذرة مثل

---

(١) صحيح: حديث «قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني» ... الحديث أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، [البخاري: ٣١٩٣].

هذا الآدمي المصور العاقل المتكلم المتصرف لاشتد نفور باطنه عن التصديق به، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس :٧٧] وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة :٣٦-٣٩] ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته؟ فإن كان في إيمانك ضعف فقوِّ الإيمان بالنظر في النشأة الأولى، فإن الثانية مثلها وأسهل منها، وإن كنت قوي الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار، وتفكر أولًا فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور، فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رؤوس الموتى فيثورون دفعة واحدة. فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرًا وجهك مغبرًا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتًا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم؛ وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافًا إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدّة الانتظار لعاقبة الأمر. كما قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر :٦٨] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر :٨-١٠] وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٤٨-٥٢] فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديرًا بأن يتقي فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض ـ يعني يموتون بها ـ إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ القَرْنَ وَحَنى الجَبْهَةَ وَأَصْغَى بِالأُذْنِ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ» (١).

قال مقاتل: الصور هو القرن؛ وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر

(١) صحيح: حديث «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ: «إن صاحبي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران» وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه، [الترمذي: ٢٤٣١، وصححه الألباني في صحيح الترمذي].

متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى، فإذا نفخ صعق من في السموات والأرض أي مات كل حيوان من شدّة الفزع إلا من شاء الله، وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل، ثم روح ميكائيل، ثم روح إسرافيل، ثم يأمر ملك الموت فيموت. ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة، ثم يحيي الله تعالى إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر :٦٨] على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال رسول الله ﷺ: «حِينَ بُعِثَ إِلَيَّ بُعِثَ إِلَى صَاحِبِ الصُّورِ فَأَهْوَى بِهِ إِلَى فيهِ وَقَدَّمَ رِجْلًا وَأَخَّرَ أُخْرَى مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ ألا فَاتَّقُوا النَّفْخَةَ»(١)، فتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفًا من هذه الصعقة، وانتظارًا لما يقضي عليه من سعادة أو شقاوة، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم. بل إن كنت في الدنيا من المترفهين والأغنياء المتنعمين فملوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطؤون بالأقدام مثل الذرّة، وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رؤوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها، ولكن حشرتهم شدّة الصعقة وهول النفخة، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير :٥] ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمرّدها وعتوّها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقًا لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم :٦٨] فتفكر في حالك وحال قلبك هنالك.

صفة أرض المحشر وأهله:

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلًا إلى أرض المحشر، أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، ولا ترى عليها ربوة يختفي الإنسان وراءها، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها. بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمرًا، فسبحان من جمع الخلائق من اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة، والراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي النفخة الثانية، وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة، قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ

---

(١) صحيح: حديث «حين بعث إلي بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى». لم أجده هكذا بل قد ورد: أن إسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخاري في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة «إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر» قال البخاري ولم يصح وفي رواية لأبي الشيخ «ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان» وإسنادها جيد، [انظر صحيح الجامع: ٤٥٩٢].

عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرصِ النَّقِي لَيْسَ فِيها مَعْلَمٌ لأَحَدٍ» (١).

قال الراوي: والعفرة: بياض ليس بالناصع. والنقي: هو النقي عن القشر والنخالة. ومعلم: أي لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر.

ولا تظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها إلا في الاسم. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [ابراهيم :٤٨]. قال ابن عباس: يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمدّ مدّ الأديم العكاظي، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها. فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشدّته، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر، وأظلمت الأرض لخمود سراجها. فبينا هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤوسهم وانشقت مع غلظها وشدّتها خمسمائة عام، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فيا هول صوت انشقاقها في سمعك ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدّتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان، وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن، واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة. قال رسول الله ﷺ: «يُبْعَثُ النَّاسُ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا قَدْ أَلْجَمَهُم العَرَقُ وَبَلَغَ شُحُومَ الآذانِ» قالت سودة زوج النبي راوية الحديث قلت: يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «شغل الناس عن ذلك بهم: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس :٣٧]» (٢) فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات. كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم، قال أبو هريرة رضي الله عنه:

قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ: رُكْبَانًا وَمُشَاةً وَعَلَى وُجُوهِهِمْ، فقال رجل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِم قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ» (٣)، في طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به، ولو لم يشاهد

---

(١) صحيح: حديث «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ليس فيها معلم لأحد». متفق عليه من حديث سهل بن سعد وفصل البخاري قوله «ليس فيها معلم لأحد» فجعلها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه، [البخاري: ٦٥٢١، مسلم: ٢٧٩٠].

(٢) صحيح: حديث «يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان» قالت سودة - زوج النبي ﷺ راوية الحديث - قلت يا رسول الله واسوأتاه. أخرجه الثعلبي والبغوي وهو في الصحيحين من حديث عائشة وهي القائلة «واسوأتاه» ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أم سلمة وهي القائلة «واسوأتاه»، [البخاري: ٦٥٢٧، مسلم: ٢٨٥٩].

(٣) صحيح: حديث أبي هريرة «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: ركبانا ومشاة» رواه الترمذي وحسنه وفي الصحيحين من حديث أنس: أن رجلا قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال «أليس الذي

الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصوّر المشي على غير رجل، والمشي بالرجل أيضًا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تنكر شيئًا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشدّ إنكارًا لها فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عاريًا مكشوفًا ذليلًا مدحورًا متحيرًا مبهوتًا منتظرًا لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة.

صفة العرق:

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجنّ وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرّها وتبدّلت عما كانت عليه من خفة أمرها، ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقاب قوسين، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين. ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقرّبون، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحرّ الشمس قد صهرته بحرها واشتدّ كربه وغمه من وهجها، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضًا لشدة الزحام واختلاف الأقدام، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السماء، فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة. ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلى شحمة أذنيه، وبعضهم كاد يغيب فيه. قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ، حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ» (١)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي سَبْعِينَ بَاعًا وَيَلْجُمَهُمْ وَيَبْلُغَ آذقنهم» (٢)، كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح. وفي حديث آخر: «قيامًا شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب» (٣)، وقال عقبة بن عامر: قال رسول الله ﷺ: «تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الأَرْضِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَعْرَقُ النَّاسُ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْلُغُ عَرَقُهُ عَقِبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ

أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»، [البخاري: ٤٧٦٠، مسلم: ٢٨٠٦].

(١) **صحيح**: حديث ابن عمر «يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه». متفق عليه، [البخاري: ٦٥٣١، مسلم: ٢٨٦٢].

(٢) **صحيح**: حديث أبي هريرة «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعا». أخرجاه في الصحيحين، كما ذكره المصنف، [البخاري: ٦٥٣٢، مسلم: ٢٨٦٣].

(٣) حديث «قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب». أخرجه ابن عدي من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سليمان الجرجاني ضعفه ابن معين وقال ابن عدي لا أظن أنه كان يتعمد الكذب لكن لعله تشبه عليه.

نِصْفَ سَاقِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ رُكْبَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَخِذَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ خَاصِرَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَاهُ - وَأشار بيده فألجمها فاه - وَمِنْهُمْ مَنْ يُغَطِّيهِ العَرَقُ، وَضرب بيده على رأسه هكذا»[(١)] فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم، وفيهم من ينادي فيقول رب أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابًا ولا عقابًا فإنك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق؟.

واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب في سبيل الله؛ من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر معروف ونهي عن منكر فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرًا وأقصر زمانًا من عرق الكرب والانتظار في القيامة، فإنه يوم عظيمة شدّته طويلة مدته.

صفة طول يوم القيامة:

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم، يقفون ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روح نسيم. قال كعب وقتادة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦] قال: يقومون مقدار ثلاثمائة عام. بل قال عبد الله بن عمر، تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال: «كَيْفَ بِكُمْ إذا جَمَعَكُم اللَّهُ كَمَا تُجْمَعُ النَّبْلُ فِي الكِنَانَةِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ»[(٢)]. وقال الحسن: ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشًا واحترقت أجوافهم جوعًا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرّها واشتدّ لفحها، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضًا في طلب من يكرّم على مولاه ليشفع في حقهم، فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم وقال: دعوني نفسي نفسي؟ شغلني أمري عن أمر غيري. واعتذر كل واحد بشدّة غضب الله تعالى وقال: قد غضب اليوم ربنا غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، حتى يشفع نبينا ﷺ لمن يؤذن له فيه: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه:١٠٩] فتأمل

---

(١) **صحيح**: حديث عقبة بن عامر «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه». رواه أحمد وفيه ابن لهيعة، [**أحمد**: ١٦٩٨٦، **وانظر صحيح الترغيب**: ٣٥٨٨].

(٢) **ضعيف**: حديث ابن عمر: تلا هذه الآية ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦] ثم قال: «كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم». قلت: إنما هو عبد الله بن عمر، ورواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم روايا غير ابن وهب. ولهم غير عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم مصري، والثلاثة الآخرون شاميُّون، [**انظر ضعيف الجامع**: ٤٢٩٢].

في طول هذا اليوم وشدّة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر.

واعلم أنّ من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدّة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة، قال رسول الله ﷺ لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى المُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلاةِ المَكْتُوبَةِ يُصَلِّيها فِي الدُّنْيا» (١)، فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيديك، فاعمل في أيام قصار لأيام طوال تربح ربحًا لا منتهى لسروره، واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة، فإنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلًا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفًا لكان ربحك كثيرًا وتعبك يسيرًا.

صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه:

فاستعدّ يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كوّرت، والجبال قد سيرت، والعشار قد عطلت، والوحوش قد حشرت، والبحار قد سجرت، والنفوس إلى الأبدان قد زوّجت، والجحيم قد سعرت، والجنة قد أزلفت، والجبال قد نسفت، والأرض قد مدّت، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، يومئذ يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة، يوم ترج الأرض فيه رجًّا وتبس الجبال بسًّا فكانت هباء منبثًّا، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار، يوم تنسف فيه الجبال نسفًا فتترك قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مر السحاب، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان، فيومئذ لا

---

(١) ضعيف: حديث: سئل عن طول ذلك اليوم فقال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا». أخرجه أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبي يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد «يهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب» ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال أظنه رفعه بلفظ «إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة»، [انظر ضعيف الترغيب: ٢٠٨٥].

يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، يوم يمنع فيه العاصي من الكلام، ولا يسأل فيه عن الإجرام بل يؤخذ بالنواصي والأقدام، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملت من سوء تود لو أنّ بينها وبينه أمدًا بعيدًا، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدّمت وأخرت يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين ﷺ إذ قال له الصدّيق رضي الله عنه: أراك قد شبت يا رسول الله قال: «شَيَبَتْنِي هُود وَأَخَوَاتُها»[1]، وهي الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كوّرت، فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءتك أن تمجمج القرآن وتحرّك به اللسان، ولو كنت متفكرًا فيما تقرؤه لكنت جديرًا بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين ﷺ، وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن، فالقيامة أحد ما ذكر فيه. وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها لنقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها، فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب بل الغرض تنبيه أولي الألباب، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نعت من نعوتها معنى، فاحرص على معرفة معانيها.

ونحن الآن نجمع لك أساميها. وهي: يوم القيامة، ويوم الحسرة، ويوم الندامة، ويوم المحاسبة، ويوم المساءلة، ويوم المسابقة، ويوم المناقشة، ويوم المنافسة، ويوم الزلزلة، ويوم الدمدمة، ويوم الصاعقة، ويوم الواقعة، ويوم القارعة، ويوم الراجفة، ويوم الرادفة، ويوم الغاشية، ويوم الداهية، ويوم الآزفة، ويوم الحاقة، ويوم الطامة، ويوم الصاخة، ويوم التلاق، ويوم الفراق، ويوم المساق، ويوم القصاص، ويوم التناد، ويوم الحساب، ويوم المآب، ويوم العذاب، ويوم الفرار، ويوم القرار، ويوم اللقاء، ويوم البقاء، ويوم القضاء، ويوم الجزاء، ويوم البلاء، ويوم البكاء، ويوم الحشر، ويوم الوعيد، ويوم العرض، ويوم الوزن، ويوم الحق، ويوم الحكم، ويوم الفصل، ويوم الجمع، ويوم البعث، ويوم الفتح، ويوم الخزي، ويوم عظيم، ويوم عقيم، ويوم عسير، ويوم الدين، ويوم اليقين، ويوم النشور، ويوم المصير، ويوم النفخة، ويوم الصيحة، ويوم الرجفة، ويوم الرجة، ويوم الزجرة، ويوم السكرة، ويوم الفزع، ويوم المنتهى، ويوم الجزع، ويوم المأوى، ويوم الميقات، ويوم الميعاد، ويوم المرصاد، ويوم القلق، ويوم العرق، ويوم الافتقار، ويوم الانكدار، ويوم الانتشار، ويوم الانشقاق، ويوم الوقوف، ويوم الخروج، ويوم الخلود، ويوم التغابن، ويوم عبوس، ويوم معلوم، ويوم الساعة، ويوم موعود، ويوم مشهود، ويوم لا ريب فيه، ويوم تبلى فيه السرائر، ويوم لا تجزي نفس عن نفسٍ شيئًا، ويوم تشخص فيه الأبصار، ويوم لا يغني مولى عن مولى شيئًا، ويوم لا تملك نفس لنفس شيئًا، ويوم يدعون إلى

(١) حديث «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت». أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم.

نار جهنم دعا، ويوم يسحبون في النار على وجوههم، ويوم تقلب وجوههم في النار، ويوم لا يجزي والد عن ولده، ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، ويوم لا مرد له من الله، يوم هم بارزون، ويوم هم على النار يفتنون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار. يوم ترد فيه المعاذير وتبلى فيه السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار. يوم تخشع فيه الأبصار، وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات، وتبرز الخفيات، وتظهر الخطيئات، يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد، ويشيب الصغير ويسكر الكبير، فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين، وبرزت الجحيم وأغلي الحميم، وزفرت النار ويئس الكفار، وسعرت النيران وتغيرت الألوان، وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان.

فيا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم، حيث أغلقت الأبواب وأرخيت الستور، واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك؟ فالويل كل الويل لنا معشر الغافلين، يرسل لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين، ثم يعرّفنا غفلتنا ويقول: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء :١-٣] ثم يعرّفنا قرب القيامة فيقول: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر :١]، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج :٦-٧]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب :٦٣] ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملًا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه. فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يدارکنا الله بواسع رحمته.

صفة المسألة:

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاهًا من غير ترجمان، فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير.

فبينا أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرض على الجبار. قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكًا مَا بَيْنَ شَفْرَيْ عَيْنَيْهِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ» (١)، فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثلًا هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض، وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده. وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذقانهم خوفًا

(١) حديث «إن لله عز وجل ملكا ما بين شفري عينيه مسيرة مائة عام». لم أره بهذا اللفظ.

من أن يكونوا هم المأخوذين. فهذه حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين؟ وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة: أفيكم ربنا؟ وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لخالقهم عن أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا: سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد وعند ذلك تقوم الملائكة صفًّا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم.

وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦-٧] وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣] فيبدأ سبحانه بالأنبياء: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة: إذ يقال لهم: ما أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون، فيقولون من شدة الهيبة. لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب. وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقويهم الله تعالى، فيدعى نوح عليه السلام فيقال له: هل بلغت، فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] فيبقى متشحطًا تحت هيبة هذا السؤال سنين، فيا لعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحدًا واحدًا يا فلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض.

وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار. ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق.

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد، وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه، فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك: يا جبريل ائتني بالنار، فيجيء لها جبريل ويقول: يا جهنم أجيبي خالقك ومليكك. فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها، فلم يلبث بعد ندائها أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضبًا على من عصى الله تعالى وخالف أمره، فأخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعًا ورعبًا فتساقطوا جثيًا على الركب، وولوا مدبرين: يَوْمَ ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨] وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادي العصاة والظالمون بالويل والثبور، وينادي الصديقون نفسي نفسي. فبينما هم كذلك إذ زفرت الناس زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون،

ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع، وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين.

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجبتم، فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتدّ الفزع على العصاة، ففرّ الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج من زوجته، وبقي كل واحد منتظرًا لأمره، ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاهًا عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه، قال أبو هريرة قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَها سَحَابٌ.» قالوا: لا، قال: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ» قالوا: لا، قال: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ؛ فَيَلْقى العَبْدَ فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأَسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ العَبْدُ: بَلَى؛ فَيَقُولُ: أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لا، فَيَقُولُ: فَأَنَا أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي»[(١)].

فتوهم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاهًا، فيقول لك: ألم أنعم عليك بالشباب ففيماذا أبليته، ألم أمهل لك من العمر ففيماذا أفنيته، ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيماذا أنفقته، ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت. فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعدّ عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساوئك، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك. قال أنس رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال: «أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «مِنْ مُخَاطَبَةِ العَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ» قال: «يَقُولُ بَلَى» قال: «فيقول: فَإِنِّي لا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاّ شَاهِدًا مِنِّي فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا وَبِالكِرَامِ الكَاتِبِينَ شُهُودًا» قال: «فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ انْطِقِي» قال: «فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَلامِ فَيَقُولُ لأَعْضَائِهِ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»[(٢)]. فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء، إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره.

سأل ابن عمر رجل فقال له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ

---

(١) صحيح: حديث أبي هريرة: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال «هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب» ... متفق عليه دون قوله «فيلقى العبد... إلخ» فانفرد بها مسلم، [البخاري: ٦٥٧٤، مسلم: ١٨٢].

(٢) صحيح: حديث أنس «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال «من مخاطبة العبد ربه». رواه مسلم، [مسلم: ٢٩٦٩].

نَعَمْ فَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ، ثُمَّ يَقُولُ إِنِّي سَتَرْتُها عَلَيْكَ فِي الدُّنْيا وَإِني أَغْفرها لَكَ اليَوْمَ» (١)، وقد قال رسول الله ﷺ «مَنْ سَتَرَ عَلَى مؤْمِنٍ عَوْرَتَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ» (٢) فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساوئهم ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه، فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة، وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض؟ فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدّة الهول مظلم، فقدّر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم، فتوهم نفسك أنك في أيدي الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه: يا ابن آدم ادن مني، فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر، وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها؟ وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساوئها؟ فكم لك من خجل وجبن؟ وكم لك من حصر وعجز؟ فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه وبأي لسان تجيب وبأي قلب تعقل ما تقول؟ ثم تفكر في عظم حيائك إذا ذكرك ذنوبك شفاهًا إذ يقول: يا عبد أما استحييت مني فبارزتني بالقبيح واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجميل، أكنت أهون عليك من سائر عبادي، استخففت بنظري إليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيري، ألم أنعم عليك: فماذا غرّك بي أظننت أني لا أراك وأنك لا تلقاني.

قال رسول الله ﷺ «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاّ وَيَسْأَلُهُ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلا تَرْجمَانٌ» (٣). وقال رسول الله ﷺ «لَيَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ فيقول لَهُ أَلَمْ أُنْعِم عَلَيْكَ أَلَمْ أُوتِكَ مَالًا؟ فَيَقُولُ: بَلَى فَيَقُولُ: أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولًا؟ فَيَقُولُ: بَلَى: ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلا يَرَى إلاّ النَّارَ ثم يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلا يَرَى إلاّ النَّار، فَلْيَتَّقِ أَحَدُكُمْ النَّار وَلَوْ بِشق تَمْرَةٍ فَإِذَا لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» (٤)، وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، ثم يقول: يا ابن آدم ما غرّك بي

---

(١) **صحيح**: حديث: سأل ابن عمر رجل فقال له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟». رواه مسلم، [مسلم: ٢٧٦٨].

(٢) حديث «من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة». تقدم.

(٣) **صحيح**: حديث «ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين». متفق عليه من حديث ابن عدي عن أبي حاتم بلفظ «إلا سيكلمه» الحديث، [البخاري: ٧٥١٢، مسلم: ١٠١٦].

(٤) **صحيح**: حديث «ليقفن أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان». أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم، [البخاري: ٦٥٣٩].

يا ابن آدم ما عملت فيما علمت، يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين، يا ابن آدم ألم أكن رقيبًا على عينك وأنت تنظر بها إلى ما لا يحل لك ألم أكن رقيبًا على أذنيك، وهكذا حتى عدّ سائر أعضائه، وقال مجاهد: لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما عمل فيه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيماذا أنفقه؟ فأعظم يا مسكين بحيائك عند ذلك وبخطرك فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويغبطك الأوّلون والآخرون، وإما أن يقال للملائكة: خذوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه، وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرًا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرّطت فيه من طاعة الله وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك.

صفة الميزان:

ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق:

فرقة ليس لهم حسنة: فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوي عليهم ويلقيهم في النار، فتبتلعهم النار وينادي عليهم شقاوة لا سعادة بعدها.

وقسم آخر: لا سيئة لهم فينادي مناد ليقم الحمادون لله على كل حال؛ فيقومون. ويسرحون إلى الجنة، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى. وينادي عليهم سعادة لا شقاوة بعدها.

ويبقى قسم ثالث: وهم الأكثرون خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم، ولكن يأبى الله إلا أن يعرّفهم ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب، فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع في اليمين أو في الشمال؟ ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات؟ وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق.

وروى الحسن أن رسول الله ﷺ كان رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها فنعس، فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله ﷺ فانتبه فقال: «ما يُبْكِيكِ يا عَائِشَةُ؟» قالت: ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ فَإِنَّ أَحَدًا لا يَذْكُرُ إلاّ نَفْسه: إذَا وُضِعَت المَوَازِينُ وَوُزِنَت الأَعْمَالُ حَتَّى يَنْظُرَ ابْنُ آدَمَ أَيَخفّ مِيزَانُهُ أَمْ يَثْقُلُ. وَعِنْدَ الصُّحُفِ حَتَّى يَنْظُرَ أَبِيَمِينِهِ يَأْخُذُ كِتَابه أَوْ بِشِمَالِهِ، وَعِنْدَ الصِّراطِ»[1].

---

(١) **ضعيف**: حديث الحسن: أن رسول الله ﷺ كان رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها فنعس، فذكرت

وعن أنس: «يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدًا، وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا. وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار». قال رسول الله في يوم القيامة: «إِنَّهُ يَوْمَ يُنَادِي اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ فَيَقُولُ لَه: قُمْ يا آدَمُ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: وَكَمْ بَعْثُ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ» فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى رسول الله ﷺ ما عند أصحابه قال: «اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَعَكُمْ لَخَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ أَحَدٍ قَطُّ إِلاَّ كَثَرَتَاهُ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ» قالوا: وما هما يا رسول الله؟ قال: «يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ». قال: فسري عن القوم فقال: «اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلاَّ كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ البَعِيرِ أَوْ كَالرُّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ»[1].

صفة الخصماء ورد المظالم:

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾ [القارعة: ٦-١١].

واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا. وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحًا ويتدارك ما فرط من تقصيره من فرائض الله تعالى، ويرد المظالم حبة بعد حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه، وبطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة، فهذا يدخل الجنة بغير حساب، وإن مات قبل ردّ المظالم أحاط به خصماؤه، فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلق بلببه، هذا يقول ظلمتني، وهذا يقول شتمتني، وهذا يقول استهزأت بي، وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوءني، وهذا يقول جاورتني فأسأت جواري، وهذا يقول عاملتني فغششتني، وهذا يقول بايعتني

الآخرة فبكت. وفيه فبكت فقال: «ما يبكيك يا عائشة» أخرجه أبو داود من رواية الحسن: أنها ذكرت النار فبكت فقال «ما يبكيك» دون كون رأسه ﷺ في حجرها وأنه نعس وإسناده جيد، [أبو داود: ٤٧٥٥، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود].

(١) حديث «يقول الله يا آدم قم فابعث بعث النار فيقول: وكم بعث النار؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون». متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم.

فغبنتني وأخفيت عني عيب سلعتك، وهذا يقول كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول رأيتني محتاجًا وكنت غنيًّا فما أطعمتني، وهذا يقول وجدتني مظلومًا وكنت قادرًا على دفع الظلم عني فداهنت الظالم وما راعيتني. فبينا أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا في تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم - حتى لم يبقى في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار، وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم - إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾ [غافر:١٧] فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار، وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٤] الآية.

فما أشدّ فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشدّ حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقًّا أو تظهر عذرًا؟ فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضًا عن حقوقهم. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ مَنِ المُفْلِسِ» قلنا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع، قال: «المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هذا وَأَكَلَ مَالَ هذا وَسَفَكَ دَمَ هذا وَضَرَبَ هذا فَيُعْطى هذا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهذا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاته قَبْلَ أَنْ يَقْضِي مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» [(١)] فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان، فإن سلمت حسنة واحدة في مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل، لعلمت أنه لا ينقضي عنك يوم إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات؟ وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجماء من القرناء؟ فقد روى أبو ذرّ: أن رسول الله ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: «يا أَبا ذَرّ أَتَدْرِي فِيمَ يَنْتَطِحَانِ؟» قلت: لا، قال: «وَلَكِنَّ اللَّه يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا يَوْمَ القِيَامَةِ» [(٢)].

---

(١) حديث أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ «هل تدرون من المفلس؟» قلنا: المفلس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع» .... الحديث تقدم.

(٢) صحيح: حديث «يا أبا ذر أتدري فيم ينتطحان» قلت: لا، قال «ولكن ربك يدري وسيقضى بينهما». أخرجه أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبي ذر، [انظر السلسلة الصحيحة: ١٥٨٨].

وقال أبو هريرة في قوله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام :٣٨] إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ـ البهائم والدواب والطير وكل شيء ـ فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول كوني ترابًا، فذلك حين يقول الكافر يا ليتني كنت ترابًا. فكنت أنت يا مسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول: أين حسناتي؟ فيقال: نقلت إلى صحيفة خصمائك. وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك واشتدّ بسبب الكف عنها عناؤك فتقول: يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة.

قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ تُعْبَدَ الأَصْنَامُ بِأَرْضِ العَرَبِ وَلَكِنْ سَيَرْضَى مِنْكُمْ بِمَا هُوَ دُونَ ذلِكَ بِالمُحَقَّرَاتِ وَهِيَ المُوبِقَاتُ، فَاتَّقُوا الظُّلْمَ ما اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّ العَبْدَ لَيَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَمْثَالِ الجِبَالِ مِنَ الطَّاعَاتِ فَيَرَى أَنَّهُنَّ سَيُنجِينَهُ فَمَا يَزَالُ عَبْدٌ يَجِيءُ فَيَقُولُ رَبِّ إِنَّ فُلانًا ظَلَمَنِي بِمَظْلَمَةٍ فيقولُ امْحُ مِنْ حسناتِهِ فما يزالُ كَذلِكَ حَتَّى لا يَبْقَى لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ، وإِنَّ مَثَلَ ذلِكَ مَثَلُ سفرٍ نَزَلُوا بِفلاةٍ مِنَ الأَرْضِ لَيْسَ مَعَهُمْ حَطَبٌ فَتَفَرَّقَ القَوْمُ فَحَطَبُوا فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ أَعْظَمُوا نَارَهُمْ وَصَنَعُوا ما أَرَادُوا»[1]، وكذلك الذنوب ولما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[الزمر :٣٠-٣١] قال الزبير: يا رسول الله أيكرّر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال: «نَعَمْ لَيُكَرَّرَنَّ عَلَيْكُمْ حَتَّى تُؤَدُّوا إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»[2]. قال الزبير: والله إن الأمر لشديد. فأعظم بشدّة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم قال أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَحْشُرُ اللَّهُ العِبَادَ عُرَاةً غُبرًا بهْمًا» قال: قلنا: ما بهمًا؟ قال «ليس معهم شيء، ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من

---

(١) **صحيح**: حديث ابن مسعود «إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات». رواه أحمد والبيهقي في الشعب مقتصرا على آخره «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلا... الحديث وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم»، [مسلم: ٢٨١٢].

(٢) **صحيح الأسناد**: حديث: لما نزل قوله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝﴾[الزمر: ٣٠-٣١] قال الزبير: يا رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا. أخرجه أحمد واللفظ له والترمذي من حديث الزبير وقال حسن صحيح، [**أحمد**: ١٤٣٧، **وحسن الألباني إسناده في سنن الترمذي**: ٣٢٣٦].

أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولا لأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه؛ حتى اللطمة» قلنا: وكيف وإنما نأتي الله عز وجل عراة غبرًا بهمًا فقال: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ» (١) فاتقوا الله عباد الله الصالحين، ومظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق في معاشرتهم، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الـــذي ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم، كما روي عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: «رجُلاَن مِنْ أُمَّتِي جَثَيا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العِزَةِ فَقَالَ أَحَدهُمَا: يا رَبِّ خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَعْطِ أَخاكَ مَظْلَمَتَهُ. قالَ: يا رَبِّ لم يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِي شيءٌ، فقال الله تعالى لِلطَّالب: كَيْفَ تصنعُ وَلَمْ يبقَ مِنْ حسناته شَيْءٌ. قالَ: يا ربِّ يَتَحَمَّل عَنِي مِنْ أَوْزَارِي» قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال: «إنَّ ذلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى أنْ يُحْمَل عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ»، قال: «فقالَ اللَّهُ للطالبِ ارْفَعْ رَأْسَكَ فانْظُرْ في الجِنَانِ فَرَفَعَ رَأسَهُ فقالَ: يا ربِّ أرَى مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ مرتفعة وقصورًا مِنْ ذهبٍ مُكَلَّلَةً باللؤلؤ لأيِّ نَبي هذا أو لأيِّ صدِّيقٍ هذا؟ أو لأيِّ شهيدٍ هذا؟ قال لِمَنْ أَعْطَانِي الثَّمَنَ، قالَ: يا ربِّ وَمَنْ يَمْلِكُ الثَّمَنَ؟ قالَ: أَنْتَ تَمْلِكُهُ، قالَ: وَما هُوَ؟ قال عَفْوُكَ عَنْ أَخِيكَ، قال: يا رَبِّ إنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ، قال اللَّهُ تعالى: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلهُ الجَنَّةَ، ثُمَّ قالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ عندَ ذلكَ: «اتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُصْلِح بَيْنَ المُؤْمِنِينَ» (٢)، وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق.

فتفكر الآن في نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد: كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء؟ وعند ذلك طار

---

(١) حسن لغيره: حديث أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول «يحشر الله العباد عراة غبرا بهما» قلنا: ما بهما؟ قال «ليس معهم شيء». قلت ليس من حديث أنس وإنما هو عبيد الله بن أنيس رواه أحمد بإسناد حسن وقال: «غرلا» مكان «غبرا»، [أحمد: ١٥٦١٢، وانظر صحيح الترغيب: ٣٦٠٨].

(٢) حديث أنس: بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العالمين» ... الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في المستدرك وقد تقدم.

قلبك سرورًا وفرحًا وابيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر، فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعًا رأسك خاليًا عن الأوزار ظهرك، ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك، وخلق الأوّلين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونك في حسنك وجمالك، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رؤوس الأشهاد: هذا فلان بن فلان رضي الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا أفترى أنّ هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التي تنالها في قلوب الخلق في الدنيا برياءك ومداهنتك وتصنعك وتزينك؟ فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لا نسبة له إليه فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به.

وإن تكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهي عند الله عظيمة فمقتك لأجلها فقال: عليك لعنتي يا عبد السوء لا أتقبل منك عبادتك، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون: وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين، وعند ذلك تنثال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك، وأنت تنادي بالويل والثبور، وهم يقولون لك: لا تدع اليوم ثبورًا واحدًا وادع ثيورًا كثيرًا وتنادي الملائكة ويقولون: هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساوئه فشقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا، وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبًا للمكانة في قلوبهم أو خوفًا من الافتضاح عندهم، فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المنقرضة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملإ العظيم مع التعرّض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم، فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط.

صفة الصراط:

ثم تفكر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥-٨٦] وفي قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٣-٢٤] فالناس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط وهو جسر ممدود على متن النار أحدّ من السيف وأدق من الشعر فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثر في أوّل قدم من الصراط وتردى. فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار

وتغيظها، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلًا عن حدّة الصراط، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدّته، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف يتنكسون فتتسفل إلى جهة النار رؤوسهم وتعلو أرجلهم، فيا له من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك، تلتفت يمينًا وشمالًا إلى الخلق وهم يتهافتون في النار والرسول عليه السلام يقول: «يا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ» والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق، فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك؟ فناديت بالويل والثبور وقلت: هذا ما كنت أخافه فيا ليتني قدّمت لحياتي يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلًا يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانًا خليلًا يا ليتني كنت ترابًا يا ليتني كنت نسيًا منسيًا يا ليت أمي لم تلدني وعند ذلك تختطفك النيران ـ والعياذ بالله ـ وينادي المنادي: ﴿اخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك؟ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم، وإن كنت به مؤمنًا وعنه غافلًا وبالاستعداد له متهاونًا فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه ـ وإن سلمت ـ فناهيك به هولًا وفزعًا ورعبًا قال رسول الله ﷺ: «يُضْرَبُ الصِّرَاط بَيْنَ ظَهْرَاني جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ بِأُمَّتِهِ مِنَ الرُّسُلِ، ولا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إلاّ الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يومئذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمِ كلاليبُ مثل شَوكِ السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟» قالوا: نَعَمْ يا رسول الله. قال: «فَإِنَّها مِثْلُ شوكِ السَّعْدانِ غَيْرَ أَنَّهُ لا يعلمُ قدرَ عظمها إلاّ اللَّهُ تعالى تَخْتَطِفُ النَّاسَ بأعمالهمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يَوبَقُ بِعَمَلِهِ ومنهمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو» (١).

وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «يَمُرُّ النَّاسُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ وَعَلَيْهِ حَسَكٌ وَكلاليبُ وَخَطاطِيفُ تَخْتَطِفُ النَّاسَ يمينًا وشِمالًا وعلى جَنْبَتَيْهِ ملائكةٌ يقولونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ البَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالفَرَسِ المُجْرى، ومنهم مَنْ يسعى سَعيًا، ومنهم مَنْ يمشي مَشْيًا، ومنهم مَنْ يَحْبُو حَبْوًا، ومنهم مَنْ يزحف زحفًا، فأمَّا أهلُ النارِ الذينَ هُمْ أَهْلُها فلا يموتون ولا يَحْيَونَ، وأمّا ناسٌ فَيُؤْخَذُونَ

(١) صحيح: حديث «ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجيز». متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث طويل، [البخاري: ٦٥٧٤، مسلم: ١٨٢].

بِذنوبٍ وخطايا فَيَحْتَرِقُونَ فَيكونونَ فَحْمًا ثُمَّ يُؤْذَنُ في الشَّفَاعَةِ» (١)، وذكر إلى آخر الحديث.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «يَجْمَعُ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لميقاتِ يومٍ مَعلومٍ قيامًا أَرْبَعِينَ سَنةً شَاخِصَةً أبصارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ ينتظرونَ فَصْلَ القَضَاءِ» وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال: «ثم يقولُ للمؤمِنينَ ارْفَعُوا رؤوسَكُمْ فيرفعونَ رؤوسَهُمْ فيعطيهم نُورَهُمْ على قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فمنهم مَنْ يُعْطى نُورَهُ مِثْلَ الجَبَلِ العظيمِ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ، ومنهم مَنْ يُعْطَى نُورَهُ أَصْغَرَ من ذلِكَ، ومنهم مَنْ يُعْطَى نورَهُ مثلَ النَّخْلَةِ، ومنهم مَنْ يُعْطَى نُورَهُ أَصْغَرَ من ذلِكَ، حتى يكون آخِرُهُمْ رَجُلًا يُعْطَى نُورَهُ على إبهام قَدَمِهِ فيضيءُ مَرَّةً ويخبو مرةً فإذا أضاء قَدمَ قَدَمَهَ فَمَشَى وإذا أَظْلَمَ قَامَ» ثم ذكر مرورهم على الصراط على قَدْرِ نُورِهِمْ: فمنهمْ من يَمُرُّ كَطَرْفِ العَيْنِ، ومنهم مَنَ يَمرُّ كالبرقِ، ومنهمْ من يَمُرُّ كالسَّحَابِ، ومنهمْ مَنْ يَمُرُّ كانقضاضِ الكَوَاكِبِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كَشَدِّ الفَرَسِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كَشَدِّ الرَّجُلِ حتى يَمُرَّ الَّذِي أعطيَ نُورَهُ على إبهامَ قدمهِ يَحْبُو على وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ ورجليهِ تجرُّ مِنْهُ يَدٌ وَتعلقُ أخرى وتعلقُ رجلٌ وتجرُّ أخرى وتصيبُ جوانبهُ النَّارُ» قال: «فلا يَزَالُ كذلِكَ حتى يخلصَ فإذا خَلَصَ وَقَفَ عليها ثمَّ قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ ما لَمْ يُعْطِ أَحَدًا إذ نَجَّانِي مِنْها بَعْدَ إذْ رَأَيْتُها فَيَنْطَلِقُ بِهِ إلى غَدِيرٍ عِنْدَ بابِ الجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُ» (٢).

وقال أنس بن مالك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ أَوْ كَحَدِّ الشَّعْرَةِ وَإِنْ المَلائِكَةَ ينجُونَ المؤمِنينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ لآخِذٌ بِحُجْزَتِي وَإِنِّي لأَقُولُ يا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ فَالزَّالُّونَ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ» (٣).

فهذه أهوال الصراط وعظائمه، فطوّل فيه فكرك فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة. ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك؟ فما ذا من الخوف في شيء؟ بل من خاف شيئًا هرب منه، ومن رجا شيئًا طلبه. فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته. وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم

---

(١) حديث أبي سعيد «يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف». متفق عليه مع اختلاف ألفاظ، [البخاري: ٦٥٧٤، ومسلم: ١٨٢].

(٢) حديث ابن مسعود «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء» وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين. بطوله رواه ابن عدي والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا.

(٣) حديث أنس «الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة». الحديث أخرجه البيهقي في الشعب، وقال هذا إسناد ضعيف قال وروى عن زياد النميري عن أنس مرفوعا «الصراط كحد الشعرة - أو كحد السيف» قال وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة.

الاستعاذة فقال أحدهم: استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم. وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم. فالشيطان يضحك من استعاذتهم. كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه: أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدّة بنيانه وإحكام أركانه؟ فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى يغني عنه ذلك من السبع. وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول: «لا إله إلا الله» صادقًا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره. ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره مخطر في نفسه، فإن عجزت عن ذلك كله فكن محبًّا لرسول الله ﷺ حريصًا على تعظيم سننه ومتشوّقًا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركًا بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة.

صفة الشفاعة:

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصدّيقين، بل شفاعة العلماء والصالحين، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعة في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه، فكن حريصًا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة، وذلك بأن لا تحقر آدميًّا أصلًا فإن الله تعالى خبأ ولايته في عباده فلعل الذي تزدريه عينك هو ولي الله، ولا تستصغر معصية أصلًا فإن الله تعالى خبأ غضبه في معاصيه فلعل مقت الله فيه، ولا تستحقر أصلًا طاعة فإن الله تعالى خبأ رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه. ولو الكلمة الطيبة أو النية الحسنة أو ما يجري مجراه.

وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة: قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] روى عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ﴾ [المائدة: ١١٨] ثم رفع يديه وقال: «أمتي أمتي» ثم بكى فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك، فأتاه جبريل فسأله فأخبره - والله أعلم به - فقال: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك [١]. وقال ﷺ «أُعطيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ

---

(١) صحيح: حديث عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى عليه السلام ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ ثم رفع يديه، ثم قال «أمتي أمتي» ثم بكى». قلت ليس هو من حديث عمرو ابن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله من بعض النساخ، [مسلم: ٢٠٢].

شَهْرٍ، وأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَتُرَابُها طَهُورًا فأيُّما رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكُلُّ نَبِي بُعِثَ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً» (١)، وقال ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَةِ كنتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبَهُمْ وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ مِنْ غَيْرِ فَخْرٍ» وقال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الأَرْضُ عنهُ وَأنا أَوَّلُ مُشَفَّعٍ بِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ تَحْتَهُ آدَم فَمَنْ دُونَهُ» (٢)، وقال ﷺ: «لِكُلِّ نَبِي دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَأُرِيدُ أن أختبئ دَعْوَتِي شفاعةً لأُمَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ» (٣)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «يُنْصَبُ لِلأَنْبِيَاءِ منابِرُ مِنْ ذَهَبٍ فَيَجْلِسُونَ عَليها، وَيَبْقَى مِنْبَرِي لا أَجْلِسُ عليه قائِمًا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي منتصبًا مخافةَ أن يبعث بي إلى الجَنَّةِ وَتَبْقَى أُمَّتِي بَعْدِي، فَأَقولُ: يا ربِّ أُمَّتِي فيقولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يا محمدُ وما تريدُ أنْ أَصْنَعَ بِأُمَّتِكَ؟ فَأَقولُ: يا رَبِّ عَجِّل حِسَابهُمْ فما أزالُ أشفعُ حتى أُعْطَى صِكاكًا برجال قد بُعِثَ بِهِمْ إلى النَّارِ وحتَّى إنَّ مالكًا خازنَ النَّارِ يقولُ: يا محمدُ ما تَرَكت النَّار لغضب ربك في أمتك من بَقِيَّةٍ» (٤). وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إِنِّي لأَشْفَعُ يوم القِيَامَةِ لأكثرَ مِمَّا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مِنْ حَجَرٍ وَمَدَرٍ» (٥).

وقال أبو هريرة: أتى رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال: «أنا سيد المرسلين يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأوّلين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس بعضهم لبعض: ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله تعالى بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم آدم عليه السلام: إن ربي قد غضب

---

(١) **صحيح**: حديث «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي». متفق عليه من حديث جابر «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح، [البخاري: ٣٣٥، مسلم: ٥٢١].

(٢) **صحيح**: حديث «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» ... الحديث أخرجه الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري، [مسلم: ٢٢٧٨، من حديث أبي هريرة].

(٣) **صحيح**: حديث «لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبئ دعوتي: شفاعة لأمتي يوم القيامة». متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة، [البخاري: ٦٣٠٤، مسلم: ١٩٩].

(٤) **ضعيف**: حديث ابن عباس «ينصب للأنبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا». أخرجه الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت والبناني ضعيف، [انظر الضعيفة: ٥٠١٣].

(٥) حديث «إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر». أخرجه أحمد والطبراني من حديث بريدة بسند حسن.

اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحًا عليه السلام فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدًا شكورًا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله. فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإني كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى عيسى عليه السلام. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى عليه السلام: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنبًا؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي، ثم يفتح الله لي من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي أمتي يا رب؛ فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب» ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كما بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ أَوْ كَما بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى» (١).

وفي حديث آخر: هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم؛ وهو قوله في الكواكب هذا ربي، وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهم هذا، وقوله: إني سقيم. فهذه شفاعة رسول الله ﷺ ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضًا حتى قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رجلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ» (٢) وقال ﷺ: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ قُمْ يا فلانُ فاشفعْ

---

(١) صحيح: حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ أتي بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال «أنا سيد المرسلين» ... الحديث بطوله في الشفاعة، قال وفي حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم، [مسلم: ١٩٣، البخاري: ٤٤٧٦].

(٢) صحيح: حديث: «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر». رويناه في جزء أبي عمر بن

فيقوم الرَّجلُ فيشفع لِلْقَبِيلَةِ ولِأَهْلِ البيتِ وَللرَّجُلِ وَالرَّجُلَيْنِ على قدْرِ عَمَلِهِ» (١).

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ «إنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ يشرفُ يومَ القيامَةِ على أَهْلِ النَّارِ فيناديهِ رجلٌ مِنْ أَهْلِ النّارِ ويقولُ: يا فلانُ هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: لا واللَّهِ ما أعرفكَ مَنْ أنتَ؟ فيقولُ: أنا الَّذِي مَرَرْتَ بِي في الدُّنيا فاسْتَسْقَيْتَنِي شربةَ ماءٍ فَسَقَيْتُكَ، قال: قد عَرَفْتُ، قال: فاشْفَعْ لي بِها عند رَبِّكَ فيسألُ اللَّهَ تعالى ذكره ويقولُ: إنِّي أَشْرَفْتُ على أهْلِ النَّارِ فَنادانِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِها فقالَ: هل تعرفني؟ فقلتُ: لا مَنْ أنْتَ؟ فقالَ: أنا الذي استسقيتني في الدُّنْيا فسقيتكَ فاشفعْ لي عندَ رَبِّكَ فَشَفعني فيهِ، فَيُشَفِّعُهُ اللَّهُ فيه فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُخْرَجُ مِنَ النَّارِ» (٢)، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خروجًا إذا بُعِثُوا وَأَنا خَطِيبُهُمْ إذا وَفَدُوا وأنا مُبَشِّرُهُمْ إذا يَئِسُوا، لواءُ الحَمْدِ يومئذٍ بِيَدِي وأنا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي ولا فَخْرَ» (٣). وقال رسول الله ﷺ «إنِّي أقومُ بينَ يَدَيْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَأُكْسَى حُلَّةً مِنْ حُلَلِ الجَنَّةِ ثم أقومُ عن يمينِ العَرْشِ ليسَ أَحَدٌ مِنَ الخلائِقِ يقُومُ ذلك المقامَ غَيْرِي» (٤).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم: عجبًا إنّ الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلًا اتخذ إبراهيم خليلًا وقال آخر: ما ذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليمًا وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه وقال آخر: آدم اصطفاه الله، فخرج عليهم ﷺ فسلم وقال: «قَدْ سَمِعْتُ كلامَكُمْ وَتَعَجُّبَكُمْ إنَّ إبراهيمَ خليلُ اللَّهِ وَهُوَ كَذلِكَ، وَمُوسَى نَجِيُّ اللَّهِ وَهُوَ كَذلِكَ، وَعِيسى روحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ وهو كذلك، وآدَمَ اصْطَفَاهُ اللَّهُ تعالى وهو كذلك، ألا وأنا حَبيبُ الله ولا فَخْرَ، وأنا حامِلُ لواءِ الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أَوَّلُ شافع وأول مُشَفَّعٍ يومَ القيامةِ ولا فَخْرَ، وأنا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّك حلقَ الجَنَّةِ فيفتحُ اللَّهُ لِي فأدخلها ومعي فقراء المُؤمِنِينَ

السماك من حديث أبي أمامة إلا أنه قال «مثل أحد الحيين ربيعة ومضر» وفيه: فكأن المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان وإسناده حسن وللترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبي الجدعاء «يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتي أكثر من بني تميم» قالوا: سواك قال «سواي» قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا، [الترمذي: ٢٤٣٩، وانظر الصحيحة: ٢١٧٨].

(١) ضعيف: حديث «يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد «أن من أمتي من يشفع للفئام ومنهم من يشفع للقبيلة... الحديث» وقال حسن وللبزار من حديث أنس «أن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة» [الترمذي: ٢٤٤٠، وانظر ضعيف الضعيف الجامع: ٢٠٠٢].

(٢) ضعيف جدًا: حديث أنس «أن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ...». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف، [انظر ضعيف الترغيب].

(٣) ضعيف: حديث أنس «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا». أخرجه الترمذي. وقال حسن غريب، [الترمذي: ٣٦١٠، وانظر ضعيف الجامع: ١٣٠٩].

(٤) ضعيف: حديث «إني أقوم بين يدي ربي عز وجل فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح، [انظر ضعيف الجامع: ١٣١١].

ولا فَخْرَ، وأنا أكرمُ الأَوَّلينَ والآخِرينَ وَلا فَخْرَ» (١).

صفة الحوض:

اعلم أنّ الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا ﷺ وقد اشتملت الأخبار على وصفه، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقه، فإن من صفاته أنّ من شرب منه لم يظمأ أبدًا. قال أنس: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسمًا فقالوا له: يا رسول الله لم ضحكت؟ فقال: «آية أنزلت علي آنفًا» وقرأ: «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝﴾ [الكوثر: ١] » حتى ختمها ثم قال: «هَلْ تَدْرُونَ ما الكَوْثَرُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ في الجنةِ عليه خَيْرٌ كَثيرٌ عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتي يومَ القيامةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّماءِ» (٢) وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَما أنا أسيرُ في الجَنَّةِ إذا بنهرٍ حافَّتَاهُ قِبابُ اللؤلؤ المجوفِ قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكَوْثر الذي أعطاكَ رَبكَ فضربَ الملك بيدهِ فإذا طِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ» (٣)، وقال: كان رسول الله ﷺ يقول: «ما بَيْنَ لابَتَيْ حَوْضِي مِثْل ما بَيْنَ المَدِينَةِ وَصَنْعَاءَ أو مِثْلُ ما بينَ المَدِينة وعُمَانَ» (٤).

وروى ابن عمر: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝﴾ قال رسول الله ﷺ: «هُوَ نَهرٌ فِي الجَنَّةِ حافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، شَرَابُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِن اللَّبَنِ وأحْلَى مِنَ العَسَلِ وأطيبُ رِيحًا مِنَ المِسْكِ يَجْرِي على جَنَادِلِ اللؤلؤ وَالمَرْجَانِ» (٥).

وقال ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ قال رسول الله ﷺ: «إنَّ حَوْضِي ما بينَ عدن إلى عمانَ البلقان ماؤهُ أَشَدُّ بياضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ وأكوابهُ عَدَدُ نجومِ السَّماءِ، مَنْ شَرِبَ منهُ شربةً لم يَظمَأْ بعدها أَبَدًا، أَوَّل النَّاسِ وُرُودًا عَلَيْهِ فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ» (٦). فقال عمر بن

---

(١) **ضعيف**: حديث ابن عباس: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم: عجبا إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا. رواه الترمذي وقال غريب، [انظر ضعيف الترمذي: ٣٦١٦].

(٢) **صحيح**: حديث أنس: أغفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يا رسول الله لم ضحكت؟ فقال «آية نزلت علي آنفا» وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝﴾ [الكوثر: ١] حتى ختمها». رواه مسلم، [مسلم: ٤٠٠].

(٣) **صحيح**: حديث أنس «بينما أن أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف». أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. ورواه البخاري من قول أنس: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء... الحديث. وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي ﷺ، [البخاري: ٤٩٦٤].

(٤) **صحيح**: حديث أنس «ما بين لابتي حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان». رواه مسلم، [مسلم: ٢٣٠٣].

(٥) **صحيح**: حديث ابن عمر: أنه لما نزل قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝﴾ قال رسول الله ﷺ «هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب». أخرجه الترمذي مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمي في مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف، [الترمذي: ٢٤٤٥، وصححه الألباني في سنن الترمذي].

(٦) **صحيح**: حديث ثوبان: قال رسول الله ﷺ: «إن حوضي ما بين عدن إلى عمان». أخرجه الترمذي وقال

الخطاب: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «هُمُ الشُّعْثُ رؤوسًا الدُّنْسُ ثِيابًا الَّذِينَ لا يَنْكِحُونَ المُتَنَعَّمَاتِ ولا تُفْتَحُ لَهُمْ أبوابُ السُّدَدِ»، فقال عمر بن عبد العزيز: والله لقد نكحت المتنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لي أبواب السدد إلا أن يرحمني الله، لا جرم لا أدهن رأسي حتى يشعث ولا أغسل ثوبي الذي على جسدي حتى يتسخ.

وعن أبي ذرّ قال: قلت يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: «والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لآنيتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّماءِ وَكَوَاكِبِها فِي الليلةِ المظلمةِ المُضْحِيَةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ. آخِرِ ما عَلَيْهِ يشخبُ فيهِ ميزابانِ من الجنةِ عَرْضُه مثلُ طُولِهِ ما بينَ عُمَانَ وَأَيْلَةَ، ماؤهُ أشدُّ بياضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ»(١).

وعن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لِكُلِّ نَبِي حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهُونَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً وإنِّي لأَرْجُو أن أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً»(٢)، فهذا رجاء رسول الله ﷺ فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين، وليحذر أن يكون متمنيًا ومغترًا وهو يظن أنه راج، فإنّ الراجي للحصاد من بث البذر ونقّى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد فأما من ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة فهذا مغتر ومتمن وليس من الراجين في شيء، وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحمقى. نعوذ بالله من الغرور والغفلة فإنّ الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان :٣٣].

القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها:

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال؛ دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم :٧١-٧٢] فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك. فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعدّ للنجاة منه، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفًا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأظلت عليهم نار ذات لهب،

غريب وابن ماجه، [انظر صحيح الترغيب: ٣١٨٥].

(١) حديث أبي ذر: قلت: يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها». رواه مسلم.

(٢) صحيح: حديث سمرة «إن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة». أخرجه الترمذي وقال: غريب. قال: روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح، [الترمذي: ٢٤٤٣، وانظر صحيح الترمذي].

وسمعوا لها زفيرًا وجرجرة تفصح عن شدّة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت الأمم على الركب حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب. وخرج المنادي من الزبانية قائلًا: أين فلان بن فلان المسوّف نفسه في الدنيا بطول الأمل المضيع عمره في سوء العمل؟ فيبادرونه بمقامع حديد ويسنتبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه في قعر الجحيم ويقولون له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] فأسكنوا دارًا ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم ومستقرّهم الجحيم.

الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك، قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها: يا مالك قد حق علينا الوعيد، يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نضجت منا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود. فتقول الزبانية: هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسؤوا فيها ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف، بل يكبون على وجوههم مغلولين، النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم، فهم غرقى في النار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل، فهم يتجلجلون في مضائقها ويتحطمون في دركاتها ويضطربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والعويل. ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها، قد عرّيت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنش في لفح تلك النيران، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سوّدت وجوههم أشد سوادًا من الحميم، وأعميت أبصارهم، وأبكمت ألسنتهم، وقصمت ظهورهم، وكسرت عظامهم، وجدعت آذانهم، ومزقت جلودهم، وغلت أيديهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم. وهم يمشون على النار بوجوههم ويطؤون حسك الحديد بأحداقهم، فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم، هذا بعض جملة أحوالهم.

وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكر أيضًا في أودية جهنم وشعابها، فقد قال النبي ﷺ «إِنَّ فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ أَلْفَ وَادٍ فِي كُلِّ وَادٍ سَبْعُونَ أَلْفَ شِعْبٍ فِي كُلِّ شِعْبٍ سَبْعُونَ أَلْفَ ثُعْبَانٍ

وَسَبْعُونَ أَلفَ عَقْرَبٍ لا يَنْتَهِي الكافِرُ وَالمُنَافِقُ حَتَّى يُواقع ذلك كُلَّهُ»[(١)]، وقال علي كرم الله وجهه: قال رسول الله ﷺ: «تَعَوَّذُوا باللَّهِ مِنْ جُبِّ الحزنِ، أَوْ وَادِي الحزنِ» قيل: يا رسول الله وما وادي ـ أو جب الحزن؟ قال: «وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوذُ مِنهُ جهنمُ كُلَّ يومٍ سبعينَ مرَّةً أَعَدَّهُ اللَّهُ تعالى لِلْقُرَّاءِ المُرَائِينَ»[(٢)]، فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها. وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصي العبد بعضها فوق بعض: الأعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية، فانظر الآن في عمق الهاوية فإنه لا حدّ لعمقها كما لا حدّ لعمق شهوات الدنيا، فكما لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها. قال أبو هريرة: كنا مع رسول الله ﷺ فسمعنا وجبة فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حَجَرٌ أُرْسِلَ فِي جَهَنَّمَ منذُ سبعينَ عامًا الآنَ انْتَهى إلى قَعْرِها»[(٣)].

ثم انظر إلى تفاوت الدركات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا، فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها، ومن خائض فيها إلى حد محدود، فكذلك تناول النار لهم متفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان، بل لكل واحد حدّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه، إلا أن أقلهم عذابًا لـــو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ما هو فيه. قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عذابًا يومَ القيامةِ ينتعلُ بنعلينِ مِنْ نَار يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ»[(٤)]. فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر بمن شدد عليه. ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به. ثم اعلم أنك أخطأت في القياس فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربًا مما هم فيه. وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل: «إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا»[(٥)] بل صرح رسول الله ﷺ بصفة نار جهنم فقال: «أَمَرَ اللَّهُ تعالى أَنْ

---

(١) حديث «إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب». لم أجده هكذا بجملته وسيأتي بعده ما ورد في ذكر الحيات والعقارب.

(٢) حديث علي «تعوذوا بالله من جب الحزن - أو وادي الحزن». رواه ابن عدي بلفظ «وادي الحزن» وقال باطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ «جب الحزن» وضعفه ابن عدي وتقدم في ذم الجاه والرياء.

(٣) **صحيح**: حديث أبي هريرة: «كنا مع رسول الله ﷺ فسمعنا وجبة». رواه مسلم، [مسلم: ٢٨٤٤].

(٤) **صحيح**: حديث «إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه». **متفق** عليه من حديث النعمان بن بشير، [مسلم: ٢١١].

(٥) حديث «إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا». ذكر ابن عبد البر من

يُوقَدَ على النَّارِ ألفَ عامٍ حتى احمرتْ، ثُمَّ أُوْقِدَ عَلَيْهِا ألفَ عام حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»(١)، وقال ﷺ: «اشْتَكَت النَّارُ إلى رَبِّها فقالت: يا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بعْضًا فَأَذِنْ لها في نَفَسَيْنِ نَفَس في الشِّتاء وَنَفَسٍ في الصَّيْفِ فَأَشَدُّ ما تَجِدُونَهُ في الصَّيْفِ مِنْ حَرِّها وَأَشَد ما تَجِدُونَهُ في الشِّتَاءِ مِنْ زَمْهَرِيرِها»(٢).

وقال أنس بن مالك: يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار فيقال: اغمسوه في النار غمسة ثم يقال له: هل رأيت نعيمًا قط فيقول: لا، ويؤتى بأشد الناس ضرًا في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة غمسة ثم يقال له: هل رأيت ضرًا قط؟ فيقول: لا. وقال أبو هريرة: لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا. وقد قال بعض العلماء في قوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [المؤمنون:١٠٤] إنها لفحتهم لفحة واحدة فما أبقت لحمًا على عظم إلا ألقته عند أعقابهم.

ثم انظر بعد هذا في نتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق: قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ دَلْوًا مِنْ غَسَاقِ جَهَنَّمَ أُلْقِيَ في الدُّنْيَا لأَنْتَنَ أَهْل الأَرْضِ»(٣)، فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقًا.

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الواقعة:٥١-٥٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأٓكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات:٦٤-٦٨] وقال تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية:٤-٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل:١٢-١٣] وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم»(٤)، فكيف من يكون طعامه ذلك؟ وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «ارْغَبُوا

حديث ابن عباس «وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ما انتفع بها أحد» وللبزار من حديث أنس وهو ضعيف «وما وصلت إليكم» حتى أحسبه قال: «نضحت بالماء فتضيء عليكم».

(١) حديث «أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت». تقدم.

(٢) **صحيح**: حديث «اشتكت النار إلى ربها فقالت يا رب أكل بعضي بعضا». متفق عليه من حديث أبي هريرة، [البخاري: ٣٢٦٠، مسلم: ٦١٧].

(٣) **ضعيف**: حديث أبي سعيد الخدري «لو أن دلوا من غساق جهنم ألقي في الدنيا لأنتن أهل الأرض». أخرجه الترمذي وقال إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف، [الترمذي: ٩٩٩٧، وانظر ضعيف الجامع: ٤٨٠٣].

(٤) **ضعيف**: حديث ابن عباس «لو أن قطرة من الزقوم قطرت». أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح وابن ماجه، [انظر ضعيف الترمذي: ٢٥٨٥].

فيما رَغَّبَكُم اللَّهُ وَاحْذَرُوا وَخَافُوا ما خَوَّفَكُم اللَّهُ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ وَمِنْ جَهَنَّمَ، فَإِنَّهُ لَوْ كانَتْ قَطْرَةٌ مِنَ الجَنَّةِ مَعَكُمْ فِي دُنْيَاكُم الَّتِي أنتمْ فيها طَيَّبَتْها لَكُمْ، وَلَوْ كَانَتْ قطرةٌ مِنَ النَّارِ مَعَكُمْ فِي دُنْيَاكُم الَّتِي أنتم فيها خَبَّثَتْهَا عَلَيْكُمْ» [(١)]، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الجُوع حَتَّى يَعْدِلَ ما هُمْ فِيهِ مِنَ العَذَابِ فَيَسْتَغِيثُونَ بالطَّعَامِ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ وَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ، فيذكرون أنهم كما كانوا يُجيزُونَ الغُصَصَ في الدنيا بشرابٍ فَيَسْتَغِيثُونَ بشرابٍ فيرفع إليهم الحَميم بكلاليب الحَدِيدِ، فإذا دَنَتْ من وجوههم شَوَتْ وُجُوهَهُمْ، فإذا دَخَلَ الشَّرَابُ بُطُونَهُمْ قطعَ ما في بُطُونِهِمْ فيقولون ادْعُوا خَزَنَةَ جهنمَ، قال: فيدعون خزنةَ جَهَنَّمَ أن ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٤٩-٥٠]قال: فَيَقُولُونَ ادْعُوا مَالِكًا فيدعونَ فَيَقُولُونَ يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قال: «فَيُجِيبهُمْ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ» [(٢)].

قال الأعمش: أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال: فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٧]قال: فيجيبهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]قال: فعند ذلك يئسوا من كل خير، وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل. وقال أبو أمامة قال رسول الله في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧]قال: «يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّهُهُ فإذا أُدْنِيَ منهُ شَوَى وَجْهَهُ فَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ. فَإذا شَرِبَهُ قَطَّعَ أمعاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ» يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]«فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم» [(٣)].

فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم، فهي لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة قال أبو

---

(١)حديث أنس «ارغبوا فيما رغبكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم». لم أجد له إسنادا.

(٢) **ضعيف**: حديث أبي الدرداء «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام». أخرجه الترمذي من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، قال الدارمي: والناس لا يعرفون هذا الحديث، وإنما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله، [الترمذي: ٢٥٨٦، وانظر ضعيف الترغيب: ٢١٦٠].

(٣) **ضعيف**: حديث أبي أمامة في قوله تعالى ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧]قال «يقرب إليه فيتكرهه». أخرجه الترمذي وقال غريب، [الترمذي: ٢٥٨٣، وانظر ضعيف الترغيب: ٢١٥٥].

هريرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلْهَازِمِهِ - يعني أشداقه - فَيَقُولُ أنا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ» ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ...﴾ [آل عمران: ١٨٠] الآية (١) وقال الرسول ﷺ: «إِنَّ فِي النَّارِ لَحَيَّاتٍ مِثْلَ أَعْنَاقِ البُخْتِ يَلْسَعْنَ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَمْوَتَهَا أَرْبعِينَ خَرِيفًا، وإِنَّ فيها لَعَقَارِبَ كالبِغَالِ المُوكَفَةِ يَلْسَعْنَ اللسعةَ فيجدُ حموتها أربعينَ خريفًا وَهذِهِ الحَيَّات وَالعَقَارِبُ إِنَّما تُسَلَّطُ على مَنْ سُلِّطَ عليهِ فِي الدُّنْيا البُخْلُ وَسُوءُ الخُلُقِ وَإِيذاءُ النَّاسِ وَمَنْ وُقِيَ ذلِكَ وُقِيَ هذه الحَيَّاتِ فَلَمْ تَمْثُل لَهُ» (٢)، ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فإنّ الله تعالى يزيد في أجسامهم طولًا وعرضًا حتى يتزايد عذابهم بسببه، فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي» قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «ضِرْسُ الكافِرِ فِي النَّارِ مِثْلُ أُحُدٍ وغِلظُ جِلْدِهِ مسَيرَةُ ثَلاثٍ» (٣) وقال رسول الله ﷺ: «شَفَتُهُ السُّفْلَى سَاقِطَةٌ عَلَى صَدْرِهِ وَالعُلْيَا قَالِصَةٌ قَدْ غَطَّتْ وجْهَهُ» (٤) وقال عليه السلام: «إِنَّ الكَافِرَ لَيَجُرُّ لِسَانَهُ فِي سِجِّين يَوْمَ القِيَامَةِ يَتَوَاطَؤُهُ النَّاسُ» (٥) ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدّد جلودهم ولحومهم. قال الحسن في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] قال: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا.

ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور، فإن ذلك يسلط عليهم في أوّل إلقائهم في النار قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجِهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لها سبعونَ ألْفَ زمامٍ مَعَ كُلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ» (٦)، وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «يُرْسَلُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ البُكَاءُ فيبكُونَ حتى تنقطعَ الدُّموعُ ثم يبكونَ الدَّمَ حتى يُرَى في وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الأُخْدُودِ لَوْ أُرْسِلَتْ

---

(١) **صحيح**: حديث أبي هريرة: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر ونحوه، [البخاري: ٤٥٦٥].

(٢) **حسن**: حديث «إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا». أخرجه أحمد من وراية ابن لهيعة عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء، [أحمد: ١٧٢٦٠، **وانظر صحيح الترغيب**: ٣٦٧٦].

(٣) **صحيح**: حديث أبي هريرة «ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث». رواه مسلم، [مسلم: ٢٨٥١].

(٤) **ضعيف**: حديث «شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن صحيح غريب، [الترمذي: ٣١٧٦، **وانظر ضعيف الترغيب**: ٢١٦٧].

(٥) **ضعيف**: حديث «إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس». أخرجه الترمذي من رواية أبي المخارق عن ابن عمر وقال غريب وأبو المخارق لا يعرف، [أحمد: ٥٦٣٨، **وانظر الضعيفة**: ١٩٨٦].

(٦) **صحيح**: حديث «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام». أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود، [مسلم: ٢٨٤٢].

فِيها السُّفُنُ لَجَرَتْ وما دام يُؤْذَنُ لَهُمْ فِي البُكاءِ وَالشَّهِيقِ وَالزَّفِيرِ وَالدَّعْوَةِ بِالوَيْلِ وَالثُّبُورِ فَلَهُمْ فِيهِ مُسْتَرَوَحٌ وَلكِنَهُمْ يُمْنَعُونَ أيضًا مِنْ ذلِكَ» (١)، قال محمد بن كعب: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدًا يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر: ١١] فيقول الله تعالى مجيبًا لهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٧] فيجيبهم الله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فلا يتكلمون بعدها أبدًا وذلك غاية شدّة العذاب. قال مالك بن أنس رضي الله عنه: قال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١]، وقال ﷺ: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ يَوْمَ القِيَامَةِ كأنه كَبْشٌ أَمْلَحُ فَيُذْبَحُ بينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ويقالُ يا أهلَ الجَنَّةِ خلودٌ بلا مَوْتٍ ويا أهل النَّارِ خلودٌ بلا مَوْتٍ» (٢)، وعن الحسن قال: يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتني كنت ذلك الرجل. ورئي الحسن رضي الله عنه جالسًا في زاوية وهو يبكي فقيل له: لم تبكي؟ فقال: أخشى أن يطرحني في النار ولا يبالي.

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة، وتفصيل عمومها وأجزائها ومحنها وحسرتها لا نهاية له، فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدّة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة؛ إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أيامًا قصيرة وكانت غير صافية، بل كانت مكدّرة منغصة فيقولون في أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أيامًا قلائل ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان؟ فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم

---

(١) حسن: حديث أنس «يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع». أخرجه ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس والرقاشي ضعيف، [ابن ماجه: ٤٣٢٤، وانظر صحيح الجامع: ٨٠٨٣].

(٢) صحيح: حديث «يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح». أخرجه البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد وقد تقدم.

يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها، ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم. فقد قال رسول الله ﷺ: «يؤتى يومَ القِيَامَةِ بناسٍ مِنَ النَّارِ إلَى الجَنَّةِ حَتَّى إذا دَنَوا مِنْها وَاسْتَنْشَقُوا رَائِحَتَها وَنَظَرُوا إلى قُصُورها وإلى ما أَعَدَّ اللَّهُ لأَهْلِها فيهَا نُودُوا أنِ اصْرِفُوهُمْ عَنْها لا نَصِيبَ لَهُمْ فِيها فَيَرْجِعُونَ بِحسرةٍ ما رَجَعَ الأَوَّلونَ والآخرُونَ بِمِثْلِها، فَيَقُولُونَ يا رَبَّنَا لَوْ أَدْخَلتَنَا النَّارَ قبلَ أَنْ تُرِيَنا من ثوابكَ وما أَعْدَدْتَ فيها لأَولِيائكَ كان أَهْوَنَ عَلَيْنَا، فيقولُ اللَّهُ تعالى ذاكَ أَرَدْتُ بِكُمْ كُنْتُمْ إذا خَلَوْتُمْ بارَزْتُمُونِي بالعَظَائِمِ وإذا لَقِيتُم النَّاسَ لَقِيتُمُوهُمْ مُخْبِتِينَ تُرَاؤُونَ النَّاسَ بخلافِ ما تُعْطُونِي مِنْ قُلُوبِكُمْ هِبْتُم النَّاسَ وَلَمْ تَهَابُونِي وَأَجْلَلْتُم النَّاسَ ولم تُجِلونِي وَتَرَكْتُمْ لِلنَّاسِ وَلَمْ تَتْرُكُوا لِي فَالْيَوْمَ أُذِيقُكُم العَذَابَ الأَلِيمَ مَعَ ما حرمْتُكُمْ مِنَ الثَّوَابِ المُقِيمِ» (١) قال أحمد بن حرب: إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار. وقال عيسى عليه السلام: كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدًا بين أطباق النار يصيح. وقال داود: إلهي لا صبر لي على حرّ شمسك فكيف صبري على حر نارك؟ ولا صبر لي على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك؟

فانظر يا مسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق أهلًا لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة، بل في أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء، فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك.

فإن قلت: فليت شعري ماذا موردي وإلى ماذا مآلي ومرجعي وما الذي سبق به القضاء في حقي؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك، فإنّ كلًا ميسر لما خلق له، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار، وإن كنت لا تقصد خيرًا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرًّا إلا ويتيسر لك أسبابه، فاعلم أنك مقضيٌّ عليك، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار. فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤] فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم.

القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها:

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى، فتأمل نعيمها وسرورها فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة في الأخرى. فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر في

---

(١) موضوع: حديث «يؤمر يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها». رويناه في الأربعين لأبي هدبة عن أنس وأبو هدبة إبراهيم بن هدبة هالك، [انظر ضعيف الترغيب: ٢٣].

أهوال الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان، وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم، فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم، جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل، محفوفة بالغلمان والولدان، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، يمشين في درجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفًا من الولدان، عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه الأبصار، مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان، شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان، قاصرات الطرف عين، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم، وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، لا يخالفون فيها ولا يحزنون، وهم من ريب المنون آمنون، فهم فيها يتنعمون ويأكلون من أطعمتها، ويشربون من أنهارها لبنًا وخمرًا وعسلًا من أنهار أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران، ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور، ويؤتون بأكواب وأي أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته، لم يصنعه آدمي فيقصر في تسوية صنعته وتحسين صناعته، في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها، ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه.

فيا عجبًا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ويتهنأ بعيش دونها؟ والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرًا بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرير ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون، وهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون، وهم على الدوام بين أصناف هذه

النعم يترددون وهم من زوالها آمنون. قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «يُنَادِي مُنَادٍ يا أَهْلَ الجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلا تَسْقَمُوا أَبدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فلا تَمُوتُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَموا فلا تَبْأَسُوا أَبَدًا: فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] (١).

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان، واقرأ من قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] إلى آخر سورة الرحمن، واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور. وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها، وتأمل أوّلًا عدد الجنان قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء كبرياء على وجهه في جنة عدن» (٢)، ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ كُلِّها وَلِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيام، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد». فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم» (٣).

وعن عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكرًا لا أحفظه ثم قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا إلى إحداهما كما أمروا به فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدًا ولا تشعث رؤوسهم كأنما دهنوا بالدهان، ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة، يقولون له: أبشر أعدّ الله لك من الكرامة كذا، قال: فينطلق غلام من أولئك الولدان

---

(١) **صحيح**: حديث أبي هريرة «ينادي مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد، [مسلم: ٢٨٣٧].

(٢) **صحيح**: حديث «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما». متفق عليه من حديث أبي موسى، [البخاري: ٤٨٧٨، مسلم: ١٨٠].

(٣) **صحيح**: حديث أبي هريرة «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة كلها». متفق عليه، [البخاري: ١٨٩٧، مسلم: ١٠٢٧].

إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول:

قد جاء فلان، باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا، فتقول: أنت رأيته؟ فيقول أنا رأيته وهو بأثري، فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدّره لألم أن يذهب بصره، ثم يطأطئ رأسه فإذا أزواجه ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾ [الغاشية: ١٤-١٦] ثم اتكأ فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ثم ينادي مناد: تحيون فلا تموتون أبدًا وتقيمون فلا تظعنون أبدًا وتصحون فلا تمرضون أبدًا وقال رسول الله ﷺ: «آتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بابَ الجَنَّةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الخَازِنُ مَنْ أَنْتَ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لا أَفْتَحَ لأَحَدٍ قَبْلَكَ»(١).

ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا. وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتًا ظاهرًا فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١] وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] والعجب أنه لو تقدّم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك، وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها، فقد قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ فَوْقَهُمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ إِلى المَغْرِبِ لتَفَاضُلِ ما بَيْنَهُمْ» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصدَّقُوا المُرْسَلِينَ»، وقال أيضًا: «إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ العُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ فِي أُفُقٍ مِنْ آفاقِ السَّمَاءِ وَإِنَّ أبا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعَمَا»(٢)، وقال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ: «أَلا أُحَدِّثُكُمْ بِغُرَفِ الجَنَّةِ» ؟ قال: قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليك، بأبينا أنت وأمنا قال: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا مِنْ أَصْنَافِ الجَوْهَرِ كُلُّهُ يُرَى ظَاهِرُها مِنْ بَاطِنِها وَباطِنُها مِنْ ظَاهِرِهَا وَفيها مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَّاتِ وَالسُّرُورِ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» قال: قلت يا رسول الله ولمن هذه الغرف؟ قال: «لِمَنْ أَفْشَى السَّلامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاس

(١) صحيح: حديث «آتي يوم القيامة باب الجنة فأستفتح». أخرجه مسلم من حديث أنس، [مسلم: ١٩٧].
(٢) صحيح: حديث أبي سعيد «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكوكب الغائر في الأفق». متفق عليه وقد تقدم.

نِيامٌ» (١) قال: قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك؟ قال: «أُمَّتِي تُطِيقُ ذلِكَ وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذلِكَ. مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ أَفْشَى السَّلامَ، وَمَنْ أَطْعَمَ أَهْلَهُ وَعِيَالَهُ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى يُشْبِعَهُمْ فَقَدْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَمِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فَقَدْ أَدَامَ الصِّيَامَ، وَمَنْ صَلَّى العِشَاءَ الآخِرَةَ وَصَلَّى الغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَقَدْ صَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيامٌ» (٢)، يعني اليهود والنصارى والمجوس. وسئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة :٧٢] قال: «قُصُورٌ مِنْ لُؤْلُؤ، فِي كُلِّ قَصْرٍ سبعونَ دارًا مِنْ ياقوتٍ أحْمَرَ، في كلِّ دارٍ سبعونَ بيتًا من زُمُرُّدٍ أخْضَرَ، في كُلِّ بيت سَرِير، على كلِّ سريرٍ سبعونَ فِراشًا مِنْ كلِّ لَوْنٍ، على كُلِّ فِرَاشٍ زوجةٌ مِنَ الحُورِ العِينِ، في كلِّ بيتٍ سبعونَ مائدةً. على كُلِّ مائدةٍ سبعونَ لونًا مِنَ الطَّعَامِ، فِي كلِّ بيتٍ سبعونَ وَصِيفَةً، وَيُعْطَى المُؤْمِنُ في كُلِّ غَدَاةٍ ـ يعني من القوّة ـ ما يأتي على ذلِكَ أجْمَعَ» (٣).

صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها:

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضًا عنها فقد قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ حَائِطَ الجَنَّةِ لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ تُرَابُهَا زَعْفَرَانٌ وَطِينُها مِسْكٌ» (٤)، وسئل ﷺ عن تربة الجنة فقال: «دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ» (٥)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَسقِيَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الخَمْرَ فِي الآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْها فِي الدُّنْيا، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْسُوَهُ اللَّهُ الحَرِيرَ فِي الآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْهُ فِي الدُّنْيا» (٦)،

---

(١) حديث «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع». رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد، [الترمذي: ٣٦٥٨].

(٢) ضعيف: حديث جابر «ألا أحدثكم بغرف الجنة» قلت: بلى يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا قال «إن في الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله». أخرجه أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر، [انظر ضعيف الترغيب: ٢١٩٠].

(٣) موضوع: حديث: سئل عن قوله تعالى ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [الصف: ١٢] قال «قصور من لؤلؤ». أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة والآجري في كتاب النصيحة من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال: سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم، والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور، [انظر ضعيف الترغيب: ٢١٩٨].

(٤) صحيح: حديث أبي هريرة «إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك». أخرجه الترمذي بلفظ "وملاطها المسك" وقال ليس إسناده بذلك القوى وليس عندي بمتصل ورواه البزار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفا عليه بإسناد صحيح، [الترمذي: ٢٥٢٥، وانظر صحيح الجامع: ٣١١٦].

(٥) صحيح: حديث: سئل عن تربة الجنة فقال «درمكة بيضاء مسك خالص». أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن صياد سأل النبي ﷺ عن ذلك فذكره، [مسلم: ٢٩٢٨].

(٦) حسن لغيره: حديث أبي هريرة «من سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا». أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وللنسائي بإسناد صحيح «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة»، [انظر صحيح الترغيب: ٢٠٦٥].

وقال: «أَنْهَارُ الجَنَّةِ تَتَفَجَّرُ مِنْ تَحْتِ تِلال ـ أَوْ تَحْتَ جِبَالِ ـ المِسْكِ»(١)، «ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها»(٢)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّها مِائَةَ عَامٍ لا يَقْطَعُها اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] »(٣)، وقال أبو أمامة: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إنّ الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومسائلهم؛ أقبل أعرابي فقال: يا رسول الله ﷺ قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أدري أنّ في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما هِيَ؟» قال: السدر فإن لها شوكًا، فقال: «قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨] يَخْضُدُ اللَّهُ شَوْكَهُ فَيَجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةً ثُمَّ تَنْفتِقُ الثمَرَةُ مِنْهَا عَنْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ ما مِنْها لَوْنٌ يُشْبِهُ الآخَرَ»(٤)، وقال جرير بن عبد الله: نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه، فقلت للغلام: انطلق بهذا النطع فأظله فانطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال: يا جرير تواضع لله فإن من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدري ما الظلمات يوم القيامة؟ قلت: لا أدري قال: ظلم الناس بعضهم بعضًا، ثم أخذ عويدًا لا أكاد أراه من صغره فقال: يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده، قلت: يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر؟ قال: أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر.

صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم:

قال الله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] والآيات في ذلك كثيرة وإنما تفصيله في الأخبار؛ فقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَنْ يَدْخل الجَنَّةَ يَنْعَم وَلا يَبْأَس لا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلا يَفْنَى شَبَابُهُ، فِي الجَنَّة ما لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَر عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(٥)، وقال رجل: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة

---

(١) **حسن صحيح**: حديث «أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال - أو تحت جبال - المسك». أخرجه العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة، [انظر صحيح الترغيب: ٣٧٢١].

(٢) حديث «لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن.

(٣) **صحيح**: حديث «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها». متفق عليه من حديث أبي هريرة، [البخاري: ٣٢٥٣، مسلم: ٢٨٢٦].

(٤) **صحيح لغيره**: حديث أبي أمامة: أقبل أعرابي فقال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟. أخرجه ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسلا من غير ذكر لأبي أمامة، [انظر صحيح الترغيب: ٣٧٤٢].

(٥) **صحيح**: حديث أبي هريرة «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه». رواه مسلم دون قوله: «في الجنة ما لا عين رأت... إلخ» فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة « قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت... الحديث»، [انظر صحيح الترغيب: ٢٨٣٦].

أخلق تخلق أم نسج تنسج؟ فسكت رسول الله ﷺ وضحك بعض القوم، فقال رسول الله ﷺ «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ مِنْ جَاهِلٍ سَأَلَ عَالِمًا» ثم قال رسول الله ﷺ «بَلْ يَنْشَقُّ عَنْهَا ثَمَرُ الجَنَّةِ مَرَّتَيْنِ» (١) وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلا يَمْتَخِطُونَ وَلا يَتَغَوَّطُونَ آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الحُسْنِ، لا اخْتِلافَ بَيْنَهُمْ ولا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً» وفي رواية: «عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً» (٢) وقال ﷺ في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ قال: «إِنَّ عَلَيْهِمِ التِّيجَانَ وإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ فِيهَا تُضِيءُ ما بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ» (٣) وقال ﷺ «الخَيْمَةُ دُرَّةٌ مُجَوَّفَةٌ طُولها فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ مِيلًا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا لِلْمُؤْمِنِ أَهْلٌ لا يَرَاهُم الآخَرُونَ» (٤) رواه البخاري في الصحيح. قال ابن عباس: الخيمة درّة مجوّفة فرسخ في فرسخ لهـا أربعة آلاف مصراع من ذهب. وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] قال: «ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض» (٥).

صفة طعام أهل الجنة:

بيان طعام أهل الجنة مذكور في القرآن من الفواكه والطيور السمان والمن والسلوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى، قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة، وقد قال ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال: فمن أوّل إجازة ـ يعني على الصراط ـ؟ فقال: «فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ» قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتِ»

---

(١) حديث: قال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج؟. أخرجه النسائي من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) صحيح: حديث أبي هريرة «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر». متفق عليه، [البخاري: ٣٢٤٥، مسلم: ٢٨٣٤].

(٣) ضعيف: حديث: في قوله تعالى ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الحج: ٢٣] قال «إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا نعرفه إلا من حديث رِشْدين بن سعد، [الترمذي: ٩٩٩٩، وانظر ضعيف الترغيب: ٢٢٢٣].

(٤) صحيح: حديث «الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا». عزاه المصنف للبخاري وهو متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري، [البخاري: ٣٢٤٣، مسلم: ٢٨٣٨].

(٥) ضعيف: حديث أبي سعيد في قوله تعالى ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الواقعة: ٣٤] قال «ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض». أخرجه الترمذي بلفظ «ارتفاعها لكما بين السماء والأرض» وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث رِشْدِين بن سعد، [الترمذي: ٢٥٤٠، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي].

قال: فما غداؤهم على أثرها؟ قال: «يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الجَنَّةِ الَّذِي كانَ يَأْكُلُ فِي أَطْرَافِها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «مِنْ عَيْنٍ فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا» فقال: صدقت[(١)]. وقال زيد بن أرقم: جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ وقال: يا أبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ وقال لأصحابه: إن أقرّ لي بها خصمته، فقال رسول الله ﷺ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ وَالجِمَاعِ» فقال اليهودي: فإنّ الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «حَاجَتُهُمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلَ المِسْكِ فإذا البَطْنُ قَدْ ضَمرَ»[(٢)]، وقال ابن مسعود قال رسول الله ﷺ: «إِنَّكَ لَتَنْظُرُ إلى الطَّيْرِ في الجنة فَتَشْتَهِيهِ فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا»[(٣)]، وقال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ طَيْرًا مِثْلَ البُخَاتِي». قال أبو بكر رضي الله عنه: إنها لناعمة يا رسول الله؟ قال: «أَنْعَم مِنْها مَنْ يأكُلُها وَأَنْتَ مِمَّنْ يَأْكُلُها يا أبا بَكْرٍ»[(٤)]، وقال عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾[الزخرف: ٧١] قال: يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس في الأخرى مثله.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾[المطففين: ٢٧] قال: يمزج لأصحاب اليمين ويشربه المقرّبون صرفًا. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾[المطففين: ٢٦] قال: هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم وقال: لو أنّ رجلًا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها.

صفة الحور العين والولدان:

قد تكرّر في القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه. روى أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَما فِيها وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعِ قَدَمِهِ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَما فِيها، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إلى

---

(١) **صحيح**: حديث ثوبان: جاء حبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال: فمن أول الناس إجازة؟ يعني على الصراط فقال: «فقراء المهاجرين» قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال «زيادة كبد الحوت» [البخاري: ٣٩٣٨]. رواه مسلم بزيادة في أوله وآخره.

(٢) **صحيح**: حديث زيد بن أرقم: جاء رجل من اليهود فقال: يا أبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟. أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد صحيح، [انظر صحيح الجامع: ١٦٢٧].

(٣) **ضعيف جدًا**: حديث ابن مسعود «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا». أخرجه البزار بإسناد صحيح، [انظر ضعيف الترغيب: ٢٢٠٧].

(٤) **حسن صحيح**: حديث حذيفة «إن في الجنة طيرا مثل البخاتي». غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس بإسناد صحيح «إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى في شجر الجنة» قال أبو بكر: يا رسول الله إن هذه الطير ناعمة قال «أكلتها أنعم منها» قالها ثلاثا «وإني أرجو أن تكون ممن يأكل منها» وهو عند الترمذي من وجه آخر ذكر فيه نهر الكوثر وقال: «فيه طير أعناقها كأعناق الجزر» قال عمر: إن هذه لناعمة... الحديث. وليس فيه ذكر لأبي بكر وقال حسن، [انظر صحيح الترغيب: ٣٧٢٤].

الأَرْضِ لأَضَاءَتْ وَلَمَلأَتْ ما بَيْنَهُمَا رَائِحَةً وَلَنَصِيفُها عَلَى رَأْسِها خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا بَما فِيها»[(١)]، يعني الخمار، وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمٰن: ٥٨] قال: «ينْظرُ إِلَى وَجْهِهَا فِي خِدْرِها أَصْفَى مِنَ المِرآةِ وَإِنَّ أَدْنَى لُؤلُؤةٍ عَلَيْها لَتضِيءُ ما بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَإِنَّهُ يَكُون عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْبًا يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ حَتَّى يرَى مُخ سَاقِها مِنْ وَرَاءِ ذلِكَ»[(٢)].

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِي دَخَلْتُ في الجَنَّةِ مَوْضِعًا يُسَمَّى البَيْدَخَ عَلَيْهِ خِيَامُ اللُّؤلؤ وَالزَّبَرْجَدِ الأَخْضَر وَالياقُوتِ الأَحْمَر فَقُلْنَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَقُلْتُ: يا جِبْرِيل مَا هذا النِّدَاءُ؟ قَالَ: هؤلاءِ المَقْصُورَاتُ فِي الخِيامِ اسْتَأْذَنَّ رَبَّهُنَّ فِي السَّلام عَلَيْكَ فَأَذِنَ لَهُنَّ، فَطَفِقْنَ يَقُلْنَ نَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلا نَسْخَط أبدًا وَنَحْنُ الخَالِدَاتُ فلا نَظْعَنُ أَبَدًا» وقرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمٰن: ٧٢][(٣)].

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥] قال: من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمني والولد. وقال الأوزاعي: ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾ [يس: ٥٥] قال: شغلهم افتضاض الأبكار. وقال رجل: يا رسول الله أيباضع أهل الجنة؟ قال: «يُعْطَى الرَّجُلُ مِنْهُمْ مِنَ القُوَّةِ فِي اليَوْمِ الوَاحِدِ أَفْضَلَ مِنْ سَبْعِينَ مِنْكُمْ»[(٤)]، وقال عبد الله بن عمر؛ إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى له ألف خادم على عمل ليس عليه صاحبه. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لَيَتزوَّجُ خَمْسمائَةِ حَوْرَاءَ وَأَرْبَعَةَ آلاف بِكْرٍ وَثَمَانِيَةَ آلافِ ثَيِّبٍ

---

(١) **صحيح**: حديث «غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها». أخرجه البخاري من حديث أنس، [البخاري: ٢٧٩٦].

(٢) **صحيح**: حديث أبي سعيد الخدري في قوله تعالى ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ [الرحمٰن: ٥٨] قال «تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة». أخرجه أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي ﷺ مرسلا دون ذكر أبي سعيد وللترمذي من حديث ابن مسعود «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض مخ ساقها من وراء سبعين حلة... الحديث» ورواه عنه موقوفا قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم»، [البخاري: ٣٢٤٥، مسلم: ٢٨٣٤].

(٣) **منكر**: حديث أنس «لما أسري بي دخلت في الجنة موضعا يسمى الصرح» لم أجده هكذا بتمامه وللترمذي من حديث علي «إن في الجنة لمجتمعا للحور العين يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق مثلها يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له» وقال: غريب ولأبي الشيخ في كتاب العظمة حديث ابن أبي أوفى بسند ضعيف «فيجتمعن في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات... الحديث»، [الترمذي: ٢٥٦٤، وانظر ضعيف الترغيب: ٢٢٣١].

(٤) **حسن صحيح**: حديث: قال رجل يا رسول الله أيُبَاضِع أهل الجنة؟ قال «يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم». أخرجه الترمذي وصححه وابن حبان من حديث أنس «يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع» فقيل أو يطيق ذلك؟ قال «يعطى قوة مائة»، [الترمذي: ٢٥٣٦، وصححه في سنن الترمذي].

يُعَانِقُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ مِقْدَارَ عُمْرِهِ فِي الدُّنْيَا»[(١)]. وقال النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ سُوقًا ما فيها بَيْعٌ وَلا شِرَاءٌ إِلاَّ الصُّورُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَإِذا اشْتَهَى الرَّجُلُ صُورَةً دَخَلَ فِيها، وَإِنَّ فِيها لَمُجْتَمَعَ الحور العِينِ يَرْفَعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ تسْمَع الخَلائِق مِثْلها يَقُلنَ نَحْنُ الخَالِدَاتُ فَلا نَبِيدُ وَنَحْنُ النَّاعِمَاتَ فلا نَبْأَسُ وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلا نَسْخَطُ فَطوبَى لِمَنْ كانَ لَنَا وَكُنا لَهُ»[(٢)] وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الحُورَ العِينَ فِي الجَنَّةِ يَتَغَنَّيْنَ: نَحْنُ الحُور الحِسَانُ خُبِئْنَا لأَزْوَاجٍ كِرَامٍ»[(٣)]، وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥] قال السماع في الجنة. وقال أبو أمامة الباهلي: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاّ وَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ اثْنَتَانِ مِنَ الحُورِ العِين يُغَنِّيانِهِ بِأَحْسَن صَوْتٍ سَمِعَهُ الإِنْسُ وَالجِنُّ وَلَيْسَ بِمِزْمَارِ الشَّيْطَانِ وَلكِنَهُ بِتَحمِيدِ اللَّهِ وَتَقْدِيسِهِ»[(٤)].

بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار:

روى أسامة بن زيد أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «أَلاَ هَلْ مِنْ مُشمِّرٍ لِلْجَنَّةِ إِنَّ الجَنَّةَ لا خَطَرَ لَهَا هِيَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلأْلأُ وَرِيحَانَةٌ تَهْتَز وَقَصْرٌ مُشيدٌ وَنَهْرٌ مُطَّردٌ وَفَاكِهَةٌ كَثِيرةٌ نَضِيجَةٌ وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ فِي حبرَةٍ وَنِعْمَةٍ فِي مُقَامٍ أَبدًا وَنَضْرَةٌ فِي دَارٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ سَلِيمَةٍ» قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله قال: «قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى». ثم ذكر الجهاد وحضّ عليه[(٥)]. وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال: هل في الجنة خيل فإنها تعجبني؟ قال: «إِنْ أَحْبَبْتَ ذلِكَ أُوتِيتَ بِفَرسٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ فَتَطِيرُ بِكَ فِي الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتَ» وقال له رجل: إنّ الإبل تعجبني فهل في الجنة من إبل؟ فقال «يا عَبْدَ اللَّهِ إِنَّ أَدْخِلْتَ الجَنَّة فَلَكَ فِيهَا ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنَاكَ»[(٦)].

---

(١) حديث «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا». أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين وفي كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال «مائة حوراء» ولم يذكر فيه عناقه لهن، وإسناده ضعيف، وتقدم قبله بحديث.

(٢) حديث «إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء». أخرجه الترمذي فرقه في موضعين من حديث علي وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين.

(٣) **صحيح**: حديث أنس «إن الحور في الجنة يتغنين فيقلن: نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام». أخرجه الطبراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود بن المنكدر قال البخاري يتكلمون فيه وقال ابن عدي أرجو أنه لا بأس به، **[انظر صحيح الجامع: ١٦٠٢]**.

(٤) **ضعيف جدا**: حديث أبي أمامة «ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه اثنتان من الحور العين». أخرجه الطبراني بإسناد حسن، **[انظر الضعيفة: ٥٠٢٨]**.

(٥) **ضعيف**: حديث أسامة بن زيد «ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها» أخرجه ابن ماجه وابن حبان، **[انظر ضعيف الجامع: ٢١٨٠]**.

(٦) **ضعيف**: حديث جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له هل في الجنة خيل فإنها تعجبني؟. أخرجه الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه المسعودي مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسلا قال الترمذي وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى المديني عبد الرحمن بن سابط في ذيله

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لَيُولَدُ لَهُ الوَلَد كَمَا يَشْتَهِي، يَكُونُ حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ وَشَبَابُه فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ»(١). وقال رسول الله ﷺ: «إذا اسْتَقَرَّ أَهْلُ الجَنَّةِ فِي الجَنَّةِ اشْتَاقَ الإِخْوَانُ إلى الإِخْوَانِ فَيَسِيرُ سَرِيرُ هذا إلى سَرِيرِ هذا فَيَلْتَقِيَانِ وَيَتَحَدَّثَانِ ما كانَ بَيْنَهُمَا فِي دَارِ الدُّنْيَا فيقولُ يا أَخِي تَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا فِي مَجْلِسِ كَذَا فَدَعَوْنا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَغَفَرَ لَنا»(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ بِيضٌ جِعَادٌ مَكْحُولُونَ أبناء ثلاثٍ وَثلاثينَ عَلَى خَلْقِ آدَمَ طُولُهُمْ ستونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ»(٣)، وقال رسول الله ﷺ: «أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ الَّذِي لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ واثنتان وَسَبْعُونَ زَوْجَةً وَيُنْصَب لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لؤلؤ وزبرجدٍ وياقوتٍ كما بينَ الجابيةِ إلى صَنْعَاءَ وإنَّ عَلَيْهِم التِّيجانَ وإنَّ أَدْنَى لُؤلؤةٍ مِنْها لَتُضِيءُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ»(٤). وقال ﷺ: «نظرتُ إِلَى الجنةِ فإذا الرُّمانَةُ مِنْ رمَّانِها كَخُلْفِ البَعِيرِ المُقتَّبِ وَإذا طَيْرُها كالبُخْتِ، وإذا فيها جَارِيَةٌ فقلتُ يا جَارِيَةُ لِمَنْ أَنْتِ؟ فقالتْ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وإذا في الجَنَّةِ ما لا عَيْنٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(٥). وقال كعب: خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكلمي فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون: ١]. فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناه تفصيلًا.

على ابن منده في الصحابة ولا يصح له صحبة، [الترمذي: ٢٥٤٣، **وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي**].

(١) **صحيح**: حديث أبي سعيد «إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما **يشتهي**». أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن غريب، قال: وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم: في الجنة جماع ولا يكون ولد، انتهى. ولأحمد من حديث لأبي رزين «يلذ ويلم مثل لذاتكم في الدنيا ويتلذذن بكم غير أن لا **توالد**»، [الترمذي: ٢٥٦٣، **وصححه الألباني في صحيح الترمذي**].

(٢) **ضعيف**: حديث «إذا استقر أهل الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير **هذا إلى** سرير هذا». أخرجه البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس وقال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد تفرد به أنس انتهى. والربيع بن صبيح ضعيف جدًا ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسلا دون ذكر أنس، [**انظر الضعيفة**: ٢٣٢١].

(٣) **صحيح**: حديث « إن أهل الجنة جرد مرد جعاد مكحلون». أخرجه الترمذي من حديث معاذ وحسنه دون قوله «بيض جعاد» ودون قوله «على خلق آدم» إلى آخره ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا «أهل الجنة جرد مرد كحل» وقال غريب وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا»، [البخاري: ٣٣٢٧، مسلم: ٢٨٣٤].

(٤) **ضعيف**: حديث «أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد منقطعا من أوله إلى قوله "وإن عليهم التيجان" ومن هنا بإسناده أيضا وقال لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد، [الترمذي: ٢٥٦٢، **وانظر ضعيف الجامع**: ٢٦٦].

(٥) حديث «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كجلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبخت». رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد وأبو هارون اسمه عمارة بن حريث ضعيف جدًا. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «يقول الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، [البخاري: ٣٢٤٤، مسلم: ٢٨٢٤].

وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال: إنّ رمانها مثل الدلاء، وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لذة للشاربين لا تسفه الأحلام ولا تصدع منها الرؤوس، وإن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين في سن واحد طولهم ستون ذراعًا في السماء، كحل جرد مرد قد أمنوا العذاب واطمأنت بهم الدار، وإن أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد، وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يعلم علمها إلا الله تعالى، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة، وإن لهم فيها خيلًا وإبلًا هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها، وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون، وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة، قد طهر الله الأخلاق من السوء والأجساد من الموت، لا يمتخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوطون وإنما هو جشاء ورشح مسك، لهم رزقهم فيها بكرة وعشيًا، أما إنه ليس ليل يكرّ الغدوّ على الرواح والرواح على الغدوّ، وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمدّ له في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ، ويفسح له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، يغدى عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها، في كل صحفة لون ليس في الأخرى مثله، ويجد طعم آخره كما يجد طعم أوّله، وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب. وقال مجاهد: إن أدنى أهل الجنة منزلًا لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه؛ وأرفعهم الذي ينظر إلى ربه بالغداة والعشي. وقال سعيد بن المسيب: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة؛ سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن في الجنة حوراء يقال له العيناء إذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول: أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر؟ وقال يحيى بن معاذ: ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشدّ وترك الدنيا مهر الآخرة. وقال أيضًا في طلب الدنيا ذل النفوس، وفي طلب الآخرة عز النفوس، فيا عجبًا لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبقى.

صفة الرؤية والنظر الى وجه الله تبارك وتعالى:

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى، وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة ـ وقد ذكرناه حقيقتها في كتاب المحبة ـ وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده أهل البدعة.

قال جرير بن عبد الله البجلي: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر فقال:

«إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تَغْلِبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠] (١) وهو مخرج في الصحيحين.

وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال: قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال: «إذا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نادَى مُنادٍ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يريدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ؟» قالوا: ما هذا المَوْعِدُ؟ ألم يُثْقِلْ مَوَازِينَنا وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنا وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَيُجرنا مَنِ النَّارِ؟» قال: «فَيُرْفَعُ الحِجَابُ وَيَنْظُرُونَ إلى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فما أُعْطُوا شيئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ» (٢). وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة، وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى، وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى، بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء: وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المولى. وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى.

نختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك:

فقد كان رسول الله ﷺ يحب الفأل (٣)، وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدي برسول الله ﷺ في التفاؤل، ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى. فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا، ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم

---

(١) صحيح: حديث جرير: كنا جلوس عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر فقال «إنكم ترون ربكم كما ترون القمر» هو في الصحيحين كما ذكر المصنف، [البخاري: ٥٥٤ ـ مسلم: ٦٣٣].

(٢) حديث صهيب في قوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] رواه مسلم كما ذكره المصنف.

(٣) صحيح: حديث: كان رسول الله ﷺ يحب التفاؤل. متفق عليه من حديث أنس في أثناء حديث «ويعجبني الفأل الصالح والكلمة الحسنة» ولهما من حديث أبي هريرة «وخيرهما الفأل؟» قال «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»، [البخاري: ٥٧٥٦، مسلم: ٢٢٢٣].

ثم خالطه غيره، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا، ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرًا وباطنًا فإن الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض. ونحن خلق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه. فقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْها رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ وَالبَهَائِمِ وَالهَوَامِّ فيها يَتَعَاطفُونَ وَبِها يَتَرَاحَمُونَ وَأَخَّرَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِها عِبَادَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

ويروى «أنه إذا كانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَخْرَجَ اللَّهُ تعالى كِتابًا مِنْ تحتِ العَرْشِ فِيهِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فيخرجُ مِنَ النَّارِ مثلا أَهْلِ الجَنَّةِ»(٢). وقال رسول الله ﷺ: «يَتَجَلى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لنا يومَ القِيامَةِ ضاحِكا فيقولُ أَبْشِرُوا مَعْشَرَ المسلمينَ فإنهُ ليسَ منكم أَحَدٌ إلاّ وَقَدْ جعلتُ مكانَهُ فِي النَّارِ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا»(٣)، وقال النبي ﷺ: «يُشفعُ اللَّهُ تَعالَى آدمَ يومَ القِيَامَةِ مِنْ جَمِيعِ ذُرِيَّتِهِ في مِائةِ أَلْفِ أَلْف وَعَشَرَةِ آلافِ أَلْفٍ»(٤).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يقولُ يومَ القيامةِ للمؤمنينَ هَلْ أَحْبَبْتُمْ لِقَائِي؟ فيقولونَ: نَعَمْ يا رَبِّنا فيقولُ: لِمَ؟ فيقولونَ: رَجَونا عَفْوَكَ وَمَغْفِرَتَكَ. فيقولُ: أَوْجَبْت لكمْ مَغْفِرَتِي»(٥)، وقال رسول الله ﷺ: «يقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يومَ القِيَامَةِ أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا أَوْ خَافَنِي فِي

---

(١) **صحيح**: حديث «إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان، [مسلم: ٢٧٥٢].

(٢) **صحيح**: حديث «إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي». متفق عليه من حديث أبي هريرة «لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي» لفظ البخاري وقال مسلم «كتب في كتابه على نفسه أن رحمتي تغلب غضبي»، [البخاري: ٣١٩٤، مسلم: ٢٧٥١].

(٣) **صحيح**: حديث «يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين». أخرجه مسلم من حديث أبي موسى «إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديًّا أو نصرانيًّا فيقول: هذا فداؤك من النار» ولأبي داود «أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة... الحديث» وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى أيضا «يتجلى الله ربنا لنا ضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارفعوا رءوسكم فليس هذا يوم عبادة» وفيه علي بن زيد بن جدعان، [مسلم: ٢٧٦٧].

(٤) **منكر**: حديث «يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف». أخرجه الطبراني من حديث أنس بإسناد ضعيف، [انظر ضعيف الترغيب: ٢١١٦].

(٥) **ضعيف**: حديث «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم يا ربنا». أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف، [أحمد: ٢١٥٦٧، وانظر ضعيف الترغيب: ٢٠٤٥].

مَقَام» (١)، وقال رسول الله ﷺ: «إذا اجْتَمَعَ أَهْلُ النارِ فِي النَّارِ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مَعَهُمْ مِن أَهْلِ القِبْلَةِ قالَ الكُفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ؟ قالوا: بَلَى فيقولونَ ما أَغْنَى عنكم إسلامُكُمْ إذْ أنتم مَعَنَا فِي النَّارِ فيقولونَ كانَتْ لنا ذنوبٌ فَأَخَذنا بها، فيسمعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ما قالوا فيأمُرُ بإخْرَاجِ مَن فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ فَيُخْرَجُونَ فإذا رَأى ذلكَ الكفارُ قالوا يا لَيْتَنا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَنُخْرَجَ كَمَا أُخْرِجُوا»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] (٢)، وقال رسول الله ﷺ: «للَّه أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ مِنَ الوَالِدَةِ الشفيقَةِ بِوَلَدِها» (٣)، وقال جابر بن عبد الله: من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابًا يسيرًا ثم يدخل الجنة. وإنما شفاعة رسول الله ﷺ لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره.

ويروى أنّ الله عز وجل قال لموسى عليه السلام: يا موسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته وعفوت عنه. وقال سعد بن بلال: يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار، فيقول الله تبارك وتعالى: ذلك بما قدّمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد، ويأمر بردهما إلى النار، فيعدو أحدهما في سلاسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر فيأمر بردهما ويسألهما عن فعلهما، فيقول الذي عدا إلى النار قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لأتعرّض لسخطك ثانية ويقول الذي تلكأ حسن ظني بك كان يشعرني أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها، فيأمر بهما إلى الجنة، وقال رسول الله ﷺ: «يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ يَوْمَ القِيَامَةِ يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَمَّا ما كانَ لِي قبلكُمْ فَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكُمْ وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ فَتَوَاهَبُوها وَادْخُلُوا الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي» (٤).

ويروى أنّ أعرابيًا سمع ابن عباس يقرأ: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فقال الأعرابي: فوالله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها، فقال ابن عباس: خذوها من غير فقيه. وقال الصنابحي: دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت فقال: مهلًا، لم تبكي؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا

---

(١) حديث «يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام». أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال غريب، [الترمذي: ٢٥٩٤، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع].

(٢) صحيح: حديث «إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا بلى». أخرجه النسائي في الكبرى من حديث جابر نحوه بإسناد صحيح، [انظر السنة: ٨٤٣].

(٣) صحيح: حديث «لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها». متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفي أوله: قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته ببطنها فأرضعته، [البخاري: ٥٩٩٩، مسلم: ٢٧٥٤].

(٤) ضعيف: حديث «ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد». رويناه في سباعيات أبي الأسعد القشيري من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخي قال الخطيب ليس بثقة، [انظر ضعيف الترغيب: ٧٤٠].

حدّثتكموه إلا حديثًا واحدًا وسوف أحدّثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إلهَ إلاّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ»(١)، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سجلًا كُلُّ سجل مِنْها مِثْل مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ أتنكرُ مِنْ هذا شيئًا أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فيقولُ: لا، يا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فيقولُ: لا، يا رَبِّ. فيقولُ: بَلَى إنَّ لَكَ عِنْدَنا حَسَنَةً وَإنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَيُخْرِجُ بطاقَةً فيها: أَشْهَدُ أنْ لا إله إلاّ اللَّهُ وَأَشْهَد أنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللَّهِ فيقولُ يا رَبِّ ما هذِهِ البِطاقةُ مَعَ هذِهِ السِّجِلاَّتِ؟ فيقولُ: إنَّكَ لا تُظْلَمُ» قال ﷺ: «فَتُوْضَعُ السِّجلاَّتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ» قال: «فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ فَلا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ»(٢)، وقال رسول الله ﷺ في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط: «إنَّ اللَّهَ يَقولُ لِلملائِكَةِ مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مثقالَ دينارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كثيرًا ثم يقولونَ يا رَبَّنا لم نَذَرْ فيها أحدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ، ثم يقولُ ارْجعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قلبهِ مثقالَ نصف دينار مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خلقًا كثيرًا، ثمَّ يقولونَ يا ربَّنا لم نَذَرْ فيها أحدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنا به ثُمَ يقولُ ارْجعُوا فَمَنْ وَجدْتُمْ في قَلْبِهِ مثقالَ ذَرَةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيخْرِجُونَ خَلقًا كَثيرًا ثُمَّ يقولونَ يا رَبنا لم نَذَرْ فِيها أحدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنا بِهِ».

فكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٠] قال فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حممًا فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في جميل السيل ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر، وما يكون منها إلى الظل أبيض، قالوا يا رسول الله: كأنك كنت ترعى بالبادية قال: «فَيَخْرجُونَ كَاللؤلؤ فِي رِقابِهِم الخَوَاتِيمُ يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الجَنَّة يَقُولُونَ هؤلاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ الجَنَّة بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقولُ ادْخُلُوا الجَنَّة فما رأيتم فَهُوَ لَكُمْ فيقولونَ: رَبَّنا أَعْطَيْتَنَا ما لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ، فيقولُ اللَّهُ تعالَى: إنَّ لَكُمْ عِنْدي ما هُوَ أَفْضَلُ مِنْ هذا. فيقولونَ: يا رَبَّنا أيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ

---

(١) **صحيح**: حديث الصنابحي عن عبادة بن الصامت «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار». أخرجه مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصنابحي بلفظ آخر، [مسلم: ٣٢].

(٢) **صحيح**: حديث عبد الله بن عمرو «إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينتشر عليه تسعة وتسعون سجلًا» فذكر حديث البطاقة. ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب، [الترمذي: ٢٦٣٩، **وانظر صحيح الجامع**: ١٧٧٦].

هذا؟ فيقولُ: رِضَائِي عَنْكُمْ فلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَه أَبدًا» [(١)]، رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وروى البخاري أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَم يَمُرُّ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلانِ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ معهُ أَحَدٌ والنبيُّ معهُ الرَّهْط. فرأيت سوادًا كثيرًا فَرَجَوْتُ أن تكونَ أُمَّتي فقيلَ لي هذا مُوسَى وَقَوْمُهُ، ثُمَّ قيلَ لي انْظُرْ فرأيتُ سَوَادًا كَثيرًا قَدْ سَدَّ الأُفق، فَقِيلَ لِي انْظُرْ هكَذَا وَهكَذَا فَرَأَيْتُ سَوادًا كثيرًا، فَقيلَ لِي هؤلاءِ أُمَّتُكَ وَمَعَ هؤلاءِ سَبْعُونَ ألفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّة بِغَيْرِ حِسابٍ» فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله ﷺ فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا: أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمنا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «هُمُ الَّذِينَ لا يَكْتَوُونَ وَلا يَسْتَرقُونَ وَلا يَتَطَيرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فقام عكاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله. فقال: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة، فقال النبي ﷺ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ» [(٢)].

وعن عمرو بن حزم الأنصاري قال: تغيب عنا رسول الله ﷺ ثلاثًا لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع، فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا: يا رسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال: «لَمْ يَحْدُثْ إلاّ خَيْرٌ إنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَنِي أنْ يُدْخِلَ الجَنَّة مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي فِي هذِهِ الثَّلاثَةِ أَيَّام المَزِيدَ فَوَجَدْتُ رَبِّي ماجدًا واجدًا كَريمًا فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعِينَ ألفًا سَبْعِينَ ألفًا» قال: «قُلْتُ يا رَبِّ وَتَبْلُغُ أُمَّتِي هذا؟ قالَ أَكْمِلُ لَكَ العَدَدَ مِنَ الأَعْرَابِ» [(٣)].

وقال أبو ذر: قال رسول الله ﷺ «عَرَضَ لِي جِبْرِيل فِي جَانِبِ الحَرَّةِ فقالَ: بَشِّرْ أُمَّتَكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ باللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّة، فَقُلْتُ يا جِبْرِيلُ وإنْ سَرَقَ وَإنْ زَنى؟ قَالَ: نَعَمْ وَإنْ

---

(١) **صحيح**: حديث «إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا». أخرجاه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد، [**البخاري**: ٧٤٤٠، **مسلم**: ١٨٢].

(٢) **صحيح**: حديث ابن عباس «عرضت على الأمم يمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي وليس معه أحد والنبي معه الرهط». رواه البخاري، [**البخاري**: ٥٧٥٢].

(٣) **صحيح**: حديث عمرو بن حزم الأنصاري: تغيب عنا رسول الله ﷺ ثلاثا لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه «إن ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا لا حساب عليهم» وفيه «أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا». أخرجه البيهقي في البعث والنشور ولأحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر «فزادني مع كل واحد سبعين ألفا» وفيه رجل لم يسم، [**انظر السنة**: ٥٨٨]. ولأحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر: فهلا استزدته؟ فقال «استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا» قال عمر: فهلا استزدته؟ قال «قد استزدته فأعطاني هكذا» وفرج عبد الله بن أبي بكر بين يديه، قال عبد الله: وبسط باعَيْهِ وحثى عليه. وفيه موسى بن عبيدة الرندي ضعيف.

سَرَقَ وَإِنْ زَنَى، قُلْتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى؟ قالَ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى. قلتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى؟ قالَ وإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ شَرِبَ الخَمْرَ» (١)، وقال أبو الدرداء: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٤٦] فقلت: وإن سرق وإن زنى يا رسول الله؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾. فقلت وإن سرق وإن زنى؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، فقلت: وإن سرق وإن زنى يا رسول الله؟ قال: وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي الدَّرْدَاءِ (٢). وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ المِلَلِ فَقِيلَ لَهُ هذا فِدَاؤُك مِنَ النَّارِ» (٣).

وروى مسلم في الصحيح عن أبي بردة: أنه حدّث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «لا يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلاّ أَدْخَلَ اللَّهُ تَعَالَى مكانَهُ النَّارَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا» فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدّثه عن رسول الله فحلف له (٤).

وروي أنه وقف صبي في بعض المغازي ينادي عليه فيمن يزيد في يوم صائف شديد الحرّ فبصرت به امرأة في خباء القوم فأقبلت تشتدّ وأقبل أصحابها خلفها، حتى أخذت الصبي وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحرّ، وقالت: ابني ابني فبكى الناس وتركوا ما هم فيه، فأقبل رسول الله ﷺ حتى وقف عليهم فأخبروه فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال: «أَعَجِبْتُمْ مِنْ رَحْمَةِ هذِهِ لابْنِهَا؟» قالوا: نعم، قال ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرْحَمُ بِكُمْ جَمِيعًا مِنْ هذِهِ بِابْنِهَا» (٥) فتفرّق المسلمون على أفضل السرور

---

(١) صحيح: حديث أبي ذر «عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال: بشر أمتك بأنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة». متفق عليه بلفظ «أتاني جبريل ليبشرني» وفي رواية لهما «أتاني آت من ربي»، [البخاري: ٦٤٤٣، مسلم: ٩٤].

(٢) ضعيف: حديث أبي الدرداء: قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦] فقلت «وإن زنى وإن سرق». رواه أحمد بإسناد صحيح، [أحمد: ٨٤٦٨، وانظر ضعيف الجامع: ٣٤٠٤].

(٣) حديث إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار». رواه مسلم من حديث أبي موسى نحوه وقد تقدم.

(٤) صحيح: حديث أبي بردة: أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى عن النبي ﷺ قال «لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا». عزاه المصنف لرواية مسلم وهو كذلك، [مسلم: ٢٧٦٧].

(٥) صحيح: حديث: وقف صبي في بعض المغازي، ينادي عليه فيمن يزيد - في يوم صائف شديد الحر - فبصرت به امرأة». متفق عليه مختصرا مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبيا في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»، لفظ مسلم، وقال البخاري: فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسعى إذ وجدت صبيا... الحديث، [البخاري: ٥٩٩٩، مسلم: ٢٧٥٤].

والحمد لله تعالى عودا على بدء والصلاة والتسليم على سيدنا محمد في كل حركة وهدء.

وأعظم البشارة.

فهذه الأحاديث وما أوردناه في كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى، فنرجو من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه ويتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده ورحمته.

* * *